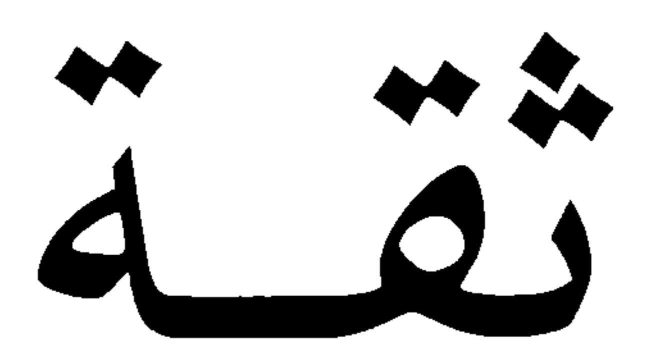

ثقة
@ketab_n
11.4.2016
آريل دورفمان
ترجمة: صالح علماني



آريل دورفمان

ترجمة: صالح علماني







ثقة

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.bqfp.com.qa

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING





صدرت الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٥

الترقيم الدولي:
الغلاف العادي: ٩٧٨٩٩٩٢١٩٥٧٨٩

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١



MIX
Paper from
responsible sources
FSC® C020471

تمت الطباعة في بريطانيا العظمى بمعرفة CPI Group (UK) Ltd, Croydon CR0 4YY.
زورونا على موقعنا www.bqfp.com.qa للمزيد من المعلومات حول كُتّابنا ومؤلفاتهم.

هذا الكتاب لأجل «ماريا أنخيليكا».
هي تعرف السبب.

كل كتاب، وبصورة خاصة هذا الكتاب، يدين بوجوده لأصواتٍ كثيرة تلهم مؤلفه المزعوم.

هنالك، قبل كل شيء، وكالعادة، القارئة العظيمة لحياتي وأعمالي، «ماريا أنخيليكا»، التي يُهدى إليها هذا الكتاب، مثلما هي كتب عديدة أخرى.

لن أنسى أبدًا رفقة ابني الأكبر «رودريجو»، الذي جاءه الصفاء ذات يوم، حين كنا نتحدث عن هذا الكتاب، وطرح عليَّ السؤال المركزي الذي انتهى إلى منح مغزى ووجهة لهذه الكتابة. وكذلك رفقة ابني الأصغر «خواكين» الذي وجه ويوجه نوعًا آخر من الأسئلة. كما أنه ما كان يمكن لـ«ثقة» أن يوجد في حالته الراهنة من دون اهتمام ودأب ومحبة ناشريَّ: أحدهما ناشر بالقشتالية، والآخر بالإنجليزية. وكلاهما ـ في مصادفة غريبة ـ يُدعى «خوان»: «خوان فورن»، و«جون جلسمان».

الشكر أيضًا لـ«مرجريت لاولس»، مساعدتي الوفية والفعَّالة، ولطلاب وأساتذة جامعة «ديوك»، ولكلٍّ من «ديبورا كارل»، و«برجيت لوف»، و«راكيل دي لا كونتشا»، وكيلاتي اللواتي دافعن

عن هذا المشروع بضراوة كبيرة في لحظات كنتُ أحتاج فيها كثيرًا إلى ذلك الدفاع.

وقد ساهمت كذلك في هذا الكتاب بصورة حاسمة المصورةُ الأمريكية الاستثنائية «ويندي إوالد»، وأصدقاؤنا «جو بلير» و«نيفرتي تاديار»، وأستاذة الأدب «أليس كبلان». وساهم كذلك، بصورة غير مقصودة، صديقي «بيتر جابرييل». جميعهم ساعدوني في أن أفهم، كلٌّ على طريقته، القصةَ الكبرى التي أدرج فيها، رغمًا عنهم وعني، أبطال «ثقة» غير المتخيلين كثيرًا.

«الكلمة الأخيرة لم تُقل بعد».

برتولد بريخت

«إنني كاذبٌ يقول الحقيقة دائمًا».

جان كوكتو

ما كادت المرأة تدخل الغرفة ٢٤٢، حتى رنَّ الهاتف.

لم ترد فورًا. ظلت عند العتبة، الحقيبة في يدٍ والمفتاح في اليد الأخرى، تتفحص الغرفة الخاوية، كما لو أنها تنتظر أن يظهر شخص آخر من العدم ويرد.

الهاتف يواصل الرنين.

أرى المرأة تتردد هنيهة أخرى. ثم تتعجل فجأة، تفلت الحقيبة، تجتاز الحجرة وترفع السماعة. وقبل أن تتمكن من الكلام، تسمع صوت رجل:

ـ «بربارا»؟

إنه صوت لا تعرفه.

ـ من أنتَ؟

ـ صديق لـ«مارتن».

ـ يا للراحة. كنت قد بدأت أقلق. كيف لم ينتظرني «مارتن» في...

ـ ولكن السائق كان هناك.

ـ أجل. لكنه لم يحمل لي أي رسالة من «مارتن». حاولتُ سؤاله ولكنه بدا أبكم. والحقيقة...

ـ الحقيقة؟

ـ بدا لي غريبًا بعض الشيء أن يرسل لي «مارتن» سيارة. ليس هذا بالضبط هو أسلوبه.

ـ أنا من أرسلتُ السيارة يا «بربارا».

ـ ما كان عليك أن تزعج نفسك. الوقت ليس مناسبًا لهذا النوع من النفقات.

ـ صحيح. ولكن من المهم التأكد من أنكِ لن تواجهي مشاكل في الوصول يا «بربارا». فلا بد أن خروجكِ كان على شيء من... الصعوبة.

ـ لم يكن سهلًا.

ـ ولكنكِ تمكنت من الخروج من دون مشاكل.

ـ لدى أبي اتصالاته.

ـ يمكنكِ الرجوع إذن من دون عائق؟

ـ ولماذا سأواجه العوائق؟

ـ هنالك أناس يواجهون عوائق.

ـ ليست هذه حالتي.

ـ يسعدني أن تكون حالتكِ هكذا. فمن الجيد دومًا تمكن المرء من العودة إلى بلاده.

ـ أنت من هناك أيضًا؟

ـ ألا يُلاحَظ ذلك في لكنتي؟

ـ المظاهر تخدع. هل أنت من هناك أم لا؟

ـ لم أعد من هناك.

ـ لم يخبرني «مارتن» بأن له...

ـ له ماذا؟

ـ صديقًا مثل حضرتك.

ـ هل تلقيتِ رسائل كثيرة منه؟

ـ كثيرة.

ـ وفي أيٍّ منها لم يذكر؟

ـ لا.

ـ هذا أفضل. أعني عدم الإتيان على ذكري. كانت لديه أمور أخرى يكتب لكِ عنها، أليس كذلك؟

ـ لا أظن أن وقت هذا الكلام الآن. ما أريد معرفته: أين هو «مارتن» الآن؟

ـ لم يستطع الوصول إلى باريس اليوم.

ـ أين هو؟

ـ إنه آتٍ في الطريق.

ـ وطلب منكَ أن تتولى أموري؟

ـ ليس بالضبط.

ـ لماذا أنت... متى سيصل هو؟

ـ بأسرع ما يستطيعه.

ـ اسمع يا سيد... عفوًا، ولكنني أظن أنك لم تخبرني باسمك.

ـ يمكنكِ أن تدعوني باسم «ليون».

ـ أيعني هذا أن اسم حضرتك ليس «ليون»؟

ـ وهل من المهم كثيرًا ما هو اسم أحدنا؟ هنا في فرنسا يسمونني «ليون».

ـ اسمع يا سيد «ليون»، أنا...

ـ «ليون» فقط. دعكِ من سيد، أرجوكِ!

لا تردُّ عليه فورًا. يراودها إحساس بأن هنالك من ينظر إليها. تستدير. ومن خلال الباب الموارب، ترى خادمة تنظر إليها بإمعان بينما هي تتظاهر بتنظيف الممر.

ـ أتنتظرني لحظة؟

تذهب نحو الباب. الخادمة لا تتأثر. تواصل مسح منضدة موجودة في الممر، وتواصل أيضًا النظر إلى المرأة. لا تقول لها «بربارا» شيئًا. تُدخل الحقيبة وتغلق الباب:

ـ «ليون»؟

ـ هل حدث شيء؟

ـ خادمة كانت تراقبني من خلال الباب.

ـ من ثقب المفتاح؟

ـ من الباب، لقد تركته مواربًا عندما...

ـ إنهن «حِشريات» جدًّا هؤلاء الفرنسيات. لا تهتمي بهن. إنهم يكرهوننا هنا.

ـ لا أدري ما الذي أفعله في هذا الفندق، في حين أن لدى «مارتن» شقة.

ـ هل فوجئتِ عندما أوصلكِ السائق إلى الفندق؟

ـ إنه أمر... غريب، كما تعرف. ولكني فكرت في أن «مارتن»، من أجل اللقاء بي... أنت تعلم.

ـ أجل. مكان جيد من أجل لقاء رومانسي.

ـ اللقاء الرومانسي بحاجة إلى شخصين. وبما أن «مارتن»

غير موجود... فإن ما أرغب فيه هو الذهاب إلى الشقة، أعني شقة «مارتن»، وانتظاره هناك.

ـ أتعرفين العنوان؟

ـ لا أعرفه في الواقع. كان يُفضل أن أكتب إليه على عنوان علبة بريدية، كان يقول لي إنه...

ـ إنه يمكن لهم أن يسرقوا الرسائل في البناية، أليس كذلك؟

ـ أجل، هذا ما كتبه إليَّ بالفعل. ولكنني أعرف أن الشقة في شارع «كانيت». وطبعًا حضرتك تعرف كثيرًا عنه كما يبدو، ولا بد أنك تعرف أن...

ـ وماذا لو لم يعد «مارتن» يعيش هناك؟

ـ لم يقل لي إنه انتقل من مسكنه.

ـ ليس الانتقال هي الكلمة التي يمكن لي أن أستخدمها.

تنتظر هنيهة. ومن إحدى الكنائس القريبة يبدأ قرع نواقيس، وبين دقة ناقوس وأخرى يُسمع خفق أجنحة حمامة على نافذة الحجرة. ثم تتكلم أخيرًا:

ـ اسمع يا «ليون»، لستَ بحاجة لمواصلة التكتم معي.

ـ لا أفهم ما تقصدينه.

ـ لقد حدث له شيء، أليس كذلك؟

ـ لمن؟

ـ لـ«مارتن».

ـ آه.

ـ لست بحاجة لمزيد من التكتم. أعرف أن شيئًا قد حدث له. لهذا جئتُ. ولولا ذلك لما... لا يروق لي ترك الـ...

ـ أجل. لقد أخبرني «مارتن» أنك تعملين مع أطفال. هل أحضرتِ معكِ بعض نسخ الصور؟

ـ قليل منها. لماذا تسألني؟

ـ لا شيء. يروق لي أن أرى ما يرونه. المدينة مثلًا، مثلما يرونها هم.

ـ إنهم موهوبون جدًّا. عسى أن يتمكنوا من المواصلة خلال هذه الأيام ريثما أتمكن من...

ـ إنني واثق من أنهم سيتدبرون أمورهم على أحسن وجه في غيابكِ.

ـ لا، لا، إنهم يحتاجون إليَّ. ولكنني حين تلقيت تلك الملاحظة المستعجلة جدًّا، فكرت في أنها...

ـ مسألة حياة أو موت.

ـ أجل. هذا ما كتبه إليَّ: إنها مسألة حياة أو موت. هل هو مريض؟ هل وقع له حادث؟

ـ «مارتن» بصحة جيدة. أؤكد لكِ ذلك.

ـ ليس صحيحًا. إنه في خطر!

ـ أي نوع من الخطر؟

ـ إننا نعيش أزمنة خطيرة يا «ليون». ألا ترى ذلك؟

ـ يمكن أن يكون الوضع أسوأ إذا أُعلنت الحرب.

ـ «مارتن»، إذن...

ـ أنا أفضل القول: إن «مارتن»... محتاج. يحتاج إلى مساعدة. وإذا نحن لم نساعده، يمكن له أن يصير في خطر فعلًا. ولكنه ليس كذلك حتى الآن.

ـ نساعده؟ مَن؟

ـ نحن. أنتِ وأنا. لا أظن أن لدى «مارتن» أحدًا سوانا في العالم يمكن أن يساعده.

ـ اعذرني يا «ليون»، ولكن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذه الحال.

ـ أي أمر؟

ـ هذه المحادثة. إنني بحاجة لأن أراه كي أتمكن من... أنا في الغرفة ٢...

ـ ٢٤٢. أعرف ذلك. فأنا من تولى الحجز لكِ في الفندق، ومن أرسل إليكِ تذكرة السفر أيضًا.

ـ تذكرة السفر أرسلها «مارتن».

ـ أؤكد لكِ أنني من أرسلها.

ـ من تكون أنت؟

ـ لقد أخبرتُكِ. صديق لـ«مارتن». شخص يمكنك الثقة به.

ـ ولماذا نتكلم هكذا إذن؟ هذا يعني... هل رأيتني؟ هل تعرف من أنا، كيف أنا؟

ـ أعرفكِ.

ـ حين وصلتُ أحسستُ أن هناك أحدًا ما، أحدًا ما ينظر إليَّ. ربما أكثر من شخص واحد.

ـ أكثر من شخص واحد؟

ـ يراقبني. أكنت أنت؟

ـ لن أكذب عليكِ. لقد كنت أنا.

ـ ولماذا لا...؟

ـ قبل أن أقدم نفسي أريد أن يتاح لك الوقت لتعرفيني أفضل قليلًا. وأن تدركي أنه، من أجل إنقاذ «مارتن»...

ـ إنقاذه! ولكنك قلت إنه ليس في وضع...

ـ قلت إنه ليس كذلك حتى الآن، ولكن إن لم تتعاوني فإن أمرًا رهيبًا قد يحدث. أجل، سيحدث شيء رهيب بصورة مؤكدة. هنالك أناس... ولكننا ستتكلم عن ذلك فيما بعد.

ـ «مارتن» لم يتورط قطُّ في مشاكل. مُطلقًا.

ـ أرى أنكِ عصبية بصورة مفرطة يا «بربارا». أريد منكِ أن تفتحي حقائبكِ. وستجدين في الحمَّام عطركِ المفضل، والصابون الذي يروقكِ، كل ما ترغبين فيه. استحمي، واستبدلي ملابسك، وسأتصل بكِ في... فلنقل بعد نصف ساعة.

ـ لا، لا. أخبرني الآن.

ـ بعد نصف ساعة.

ـ انتظر. لا تغلق، لا تغلق. كيف يمكنني التأكد من أنك ستعاود الاتصال؟ كيف يمكنني الوثوق بـ...؟

ـ لقد سمعتِ صوتي، أليس كذلك؟ أنتِ تعرفين هذه الأمور. هل هنالك شيء في صوتي يشير إلى أنني قد أسبب لكِ الأذى؟

ـ لا.

ـ أتقولين هذا بصدق؟

ـ أجل. إنه صوت... خاص.

ـ لا تدرين كم يسعدني سماع هذا. سأتصل بعد نصف ساعة.

صوت «كليك» وتلاه أزيز طويل ولجوج يشير إلى إغلاق الخط.
أرى المرأة تظل لبرهة طويلة على هذه الحال، والسماعة على أذنها. تغلق الهاتف بعد ذلك وتترك لعينيها أن تجولا على الغرفة ٢٤٢. إنها فارغة كما من قبل.

(أظن أن هنالك من يتجسس على هذه المرأة وعلى هذا الرجل. أو أنه، بعبارة أدق، يحاول التجسس عليهما. أظن أن شخصًا آخر، سواي، يترصد، يحاول الاستماع. إنه شخص لديه خططه. وهو رجل. هذا هو الشيء الوحيد الذي أعرفه الآن: إنه رجل، وهو سواي، وليس أنا نفسي.
لستُ أخترع هذه القصة. إنني أكتشفها خطوة خطوة، مثل قارئ، وربما قارئة، وليس على طريقة شخص يعرف مسبقًا ما سيحدث ويمكنه أن يحدد مسار الأحداث على هواه. كما لو أن هذا الرجل وهذه المرأة موجودان بصورة مستقلة عن مخيلتي، كما لو أنهما قد وُجدا... أجل، ولكن أين؟ حتى لو أنني أستنسخ هذا النص الذي كتبه هذا الرجل وهذه المرأة بجسديهما. ولهذا ينساب كل شيء، أحيانًا، كما لو أنه من المحال أن أخطئ، كما لو أنني مجرد وسيط مصادفة لهذا الثنائي البعيد، وسكرتيرهما تقريبًا.

وعلى الرغم من أنني أختلق من هما، أو لماذا أَحضرها إلى باريس، فإنني سأنتهي على أي حال إلى أن أكون المسؤول عما سيحدث لهما. وهكذا لا بد لكل كلمة أسجلها من أن تكون الكلمة الدقيقة، ما قاله الرجل لهذه المرأة وردَّها عليه. كما لو أن هذا الذي أدونه وثيقة، وأنا مجرد مؤرخ أو محرر ناءٍ.

لستُ وحيدًا في هذه المهمة. هنا أشعر بحضور أحدٍ آخر. عندما أتساءل عما قاله حقًا ذلك الرجل وتلك المرأة، كما لو أن صوتيهما مختنقان، عندئذ أتأكد من أن هنالك شخصًا آخر. أحد لا يعلم بوجودي ولكنه، مثلي، يراقبهما كي يخمن كلماتهما، كي يعرف من هما وماذا سيفعلان.

وأنا، كما قلت، لا أعرف عنه شيئًا. بل إنني غير متيقن من وجوده. ولكنني أعرف أن هذا الرجل، إن كان موجودًا، لا مصلحة له في كتابة هذه القصة).

قبل أن يرن الهاتف تقريبًا، رفعت هي السماعة:

ـ «بربارا»؟

ـ أجل.

ـ أأنتِ مرتاحة؟

ـ أيهمك هذا كثيرًا؟

ـ كفاية. أفضِّل ألا تكوني واقفة.

ـ كيف تعرف أنني واقفة؟

ـ إذا ما استلقيتِ على السرير فستكونين أفضل حالًا.

ـ ليست لديَّ أدنى نية في الاستلقاء على السرير.

ـ أرجوكِ يا «بربارا». أنت تعرفين أن الاستلقاء سيريحكِ. ما دمتِ لا تتسببين بتجعد ثوبك الأزرق. أنتِ أفضل حالًا هكذا، أليس كذلك؟

ـ كيف تعرف أن ثوبي أزرق؟

ـ أتظنين أن أحدهم قد أخبرني؟

ـ أهو «مارتن»؟ ولكنه لا يدقق أبدًا في...

ـ هل ستنكرين أن لونك المفضل هو الأزرق؟

ـ أيمكنك الانتظار لحظة؟

تنهض المرأة، تذهب نحو النافذة وتنظر إلى الخارج. في النافذة المقابلة، على مستوى الطابق الثاني، توجد سقالة بناء. حين وصلتُ إلى الفندق، منذ أقل من ساعة، كان هناك فريق عمال يعملون بصخب في إصلاح مبنى. لم يعودوا موجودين الآن. لا بد أنهم يأخذون قسطًا من الراحة الآن. تغلق الستائر بقوة. تسود العتمة الغرفة ٢٤٢. شعاع ضوء نحيل، كأنه غير موجود، يتسرب من بين الستائر. لا أراها وهي تشعل المصباح الذي بجانب السرير، ولكني أراها وهي تلتقط سماعة الهاتف. ومع ذلك أراها تعود، قبل أن تتكلم، للاستناد إلى وسائد السرير. وإلى جانبها أرى آلة تصوير فوتوغرافي.

ـ ولماذا كل هذا الاهتمام بلون ثوبي؟

ـ من المهم على الدوام معرفة كيف يلبس الشخص الذي يتكلم أحدنا إليه.

ـ أنت تعرف كيف ألبس بينما أنا، في المقابل، لا أعرف حتى اسمك، أعني اسمك الحقيقي.

ـ لا يمكنني، لسوء الحظ، أن أخبركِ به، حاليًا.

ـ ولكن يمكنك أن تخبرني كم عمرك؟

ـ هذا يعتمد...

ـ يعتمد على ماذا؟

ـ معظم الناس يحسبون أعمارهم ابتداء من يوم مولدهم، أما أنا فلا. فأنا بدأت أوجد بعد ذلك.

لا تقول المرأة شيئًا. وينتظر هو بدوره. ثم يسأل:

ـ ألا تريدين أن تعرفي بعد كم عام من ولادتي؟

ـ إذا أردت ذلك أخبرني...

ـ بعد اثني عشر عامًا. شيء خاص حدث لي وأنا في الثانية عشرة.

ـ ماذا حدث لك؟

ـ أظن أنكِ تعرفين بعض الأشياء عن الأطفال الذين في هذه السن.

ـ لماذا تقول لي هذا؟

ـ بما أن الأطفال الذين تعملين معهم جميعهم في الثانية عشرة تقريبًا، فقد فكرتُ في أنك تدركين أن هناك أشياء خاصة يمكن أن تحدث لهم في هذه السن.

يظل كلاهما صامتًا من جديد، هي تنتظر منه أن يبادر، أما هو فينتظر بكل بساطة. ويكون هو من يقطع الصمت مجددًا:

ـ أيزعجكِ أن أوجه إليكِ سؤالًا؟

ـ ولماذا سيزعجني ذلك؟

ـ لا أريدكِ أن تغضبي.

ـ أنا لا أغضب بسهولة.

ـ أخبريني بأمرٍ إذن: حين كان «مارتن» يقول لكِ إنكِ امرأة أحلامه، ما الذي كنت تشعرين به؟

فجأة يتجدد، في الخارج، دوي مطارق. لقد عاد عمال البناء إلى عملهم. تنتظر المرأة لحظة أخرى مصغية بانتباه، ثم تقول:

ـ «مارتن» لم يقل لي قطُّ...

ـ أرجوكِ يا «بربارا». كلانا يعرف أن «مارتن» قد قال لكِ هذه

الجملة، ويمكن أن يكون قد قالها لكِ رجال آخرون أيضًا. «امرأة أحلامي». جميع الرجال يلجؤون إلى هذه الجملة مع امرأة ما. كحالهم حين يقولون: «سآكلك يا حبي»، أو مثلما يقولون لرجال آخرين: «يمكن لي أن ألتهمها هناك بالذات يا أخي». استعارة مجازية هضمية كئيبة للجنس. ولكن ذلك كذب. مجرد أصوات ميتة. فالمساكين لا يعرفون حقًّا ما الذي يعنيه الحلم بامرأة. هل تسمعينني يا «بربارا»؟

لا تقول شيئًا. تبدو كمن تنتظر منه أن يواصل، ولكن صوته يصمت. تلعب هي بعدسة الكاميرا، تحركها ببطء شديد جيئة وذهابًا. وبعد صمت طويل، يقول هو:

ـ «بربارا»؟

ـ نعم.

ـ هل حدث لكِ شيء؟

ـ أجل.

ـ ما الذي حدث لكِ؟

ـ أشعر بالخوف.

ـ يجب ألا تخافي.

ـ اسمع يا «ليون»، أو مهما يكن اسمك، الحقيقة أنني أجد نفسي في وضع... حسَّاس. أنا لا أتكلم الفرنسية، وصلتي الوحيدة بهذه البلاد هي رجل يقول إنه صديق لـ«مارتن» من دون أن يقدم دليلًا واحدًا على ذلك، ومن دون أن يتنازل بإظهار وجهه لي، ولم يخبرني باسمه الحقيقي. لولا أن «مارتن» طلب مني المجيء بصورة مستعجلة، لرجعت إلى بلادي غدًا بالذات. ولكنه طلب مني ألَّا...

ـ ألّا تخبري أحدًا، وأن تقولي للجميع إنك ذاهبة إلى روما. إنني أعرف بالضبط ما الذي قالته رسالة «مارتن».

ـ كيف تعرف ذلك؟

ـ لأنني قرأت تلك الرسالة. لقد قرأت الرسائل كلها.

ـ كلها؟

ـ كلها.

ـ وهل يمكنني أن أعرف بأي حق فعلت ذلك؟

ـ إنني المكلف به: وهذا ما يفعله المكلفون في مثل هذه الحالات.

ـ لستُ أفهم.

ـ ما الذي لا تفهمينه؟

ـ مسألة أنك المكلف هذه...

ـ أرجوكِ يا «بربارا». لستِ بحاجة إلى التكتم معي.

ـ لستُ أتكتم.

ـ تحسنين صنعًا بالتظاهر بأنك لا تعرفين. مع أن المعرفة، بما تعنيه المعرفة حقًّا، ليست متوافرة لكِ بالطبع. ولكن «مارتن» أخبرني بأنكِ كنتِ ترتابين في أنه لم يكن يدرس الهندسة المعمارية هنا، وإنما هو متورط في... أنتِ تعلمين.

ـ لا أدري ما الذي تكلمني عنه.

ـ هيا يا «بربارا». أوَلم تسألي «مارتن»، قبل سفره إلى هنا، إن لم يكن آتيًا من أجل... شيء آخر؟ وهذه كانت كلماته بالضبط: ««بربارا» سألتني إن كنتُ آتيًا إلى باريس لأمر «آخر». واضطر «مارتن»، مريضًا من الخجل، إلى الكذب. لقد كان هذا ذنبنا نحن. أريدك أن تعلمي

أنه كان يرغب في أن يخبرك بكل شيء، ولكن كان محظورًا بكل وضوح على «مارتن» أن يُطلع أبويه أو خطيبته أو أصدقاءه على السبب الحقيقي لمجيئه.

ـ وما سبب مجيئه إذن؟

ـ أنتِ تعرفين.

ـ زيف.

ـ ما الزيف؟

ـ أنا لم أسأل «مارتن» قطُّ إن كان آتيًا إلى فرنسا من أجل... أمر آخر. لم نتحدث في هذا الشأن قطُّ.

ـ أي شأن؟

ـ في السياسة.

ـ وفي الحرب؟

ـ لن تقع حرب.

ـ بل ستقع حرب.

ـ كنا نحاول أنا و«مارتن» عدم التحدث في هذه الأمور. أمور السياسة.

ـ لماذا قال لي «مارتن» إذن إنكِ أعربت عن شكوكك قبل سفره؟

ـ ربما للتأثير عليك، كي لا تظن حضرتك أنه يريد الزواج من امرأة معادية لأفكاره، معادية لـ... هذه محادثة عبثية. لو كان صحيحًا ما تقوله عن «مارتن» لما كنتَ تعلنه هكذا، عبر الهاتف، لشخص تجهله.

ـ أولًا، أريدك أن تعرفي أنكِ بالنسبة إليَّ لستِ ما يمكن أن

أسميه شخصًا مجهولًا. وأنا أوليكِ كل ما في العالم من ثقة. كما أنني...

ـ لا يمكنك أن تعلم مقدار امتناني لثقتك بي.

ـ أرجوكِ. الاستهزاء لا يليق بكِ.

ـ هل قال لك «مارتن» هذا عني أيضًا؟

ـ وثانيًا، هذا الفندق يعتز بضمان خصوصية نزلائه. لا يمكن لأحد سماعنا.

ـ لا تصدق ذلك.

ـ نعرف جيدًا كيف نرتب أمورنا. ولكي تطمئني تمامًا، سأقول لكِ إنني الشخص الوحيد في باريس الذي يعرف اسم «مارتن» الحقيقي. الآخرون يعرفونه باسم «هانز».

ـ «هانز»؟

ـ اسمه الحربي.

ـ هذه المحادثة تتحول إلى خطيرة.

ـ غريب! لقد قال لي «مارتن» إنكِ امرأة لا تعرف الخوف. ما تفعلينه مع أولئك الأطفال مثلًا، ومهما كانت الحماية التي يوفرها لكِ أبوك... منحهم حرية التقاط تلك الصور في تلك الأجواء الهذيانية السائدة الآن في... لقد قال لي «مارتن» إن المخاطر تستهويك، وإنكِ تُقْدِمين أحيانًا على مجازفات غير ضرورية، لمجرد أن تري إن كنتِ قادرة على مواجهتها من دون أن يتبدل إيقاع قلبك.

ـ لا يمكن أن يكون قد... «مارتن» لا يتحدث عني أبدًا إلى شخص غريب، ولا يروي أبدًا أمورًا حميمة.

ـ لقد أخبرني «مارتن» بكل شيء عنكِ يا «بربارا».

ـ ماذا أخبرك؟

ـ أخبرني أمورًا عنكِ. عن حياتكِ.

ـ عن جسدي؟

ـ أجل.

ـ ماذا أخبرك عن جسدي؟

ـ نهديكِ.

ـ لا يمكن أن يكون «مارتن» قد قال...

ـ أنكِ لا تستخدمين حمَّالة صدر أبدًا.

ـ ماذا أخبرك أيضًا؟

ـ دفء صدرك. تبدين على الدوام كما لو أنكِ قد كنتِ تحت الشمس للتو..

ـ ابن الكلب.

تترك الهاتف وتمضي إلى الجانب الآخر من الحجرة. تبحث عن وجهها في المرآة، تواجه عينيها، تتنفس بعمق وتعود إلى السرير وتتناول سماعة الهاتف:

ـ إنني بحاجة إلى التحدث... بحاجة إلى التحدث فورًا مع «مارتن».

ـ لا تجرميه يا «بربارا». نحن أجبرناه على قول ذلك. هو وجميع الآخرين. من أجل أمنه الخاص. لقد روى ذلك لي لأن «ويلي»...

ـ مَن هو «ويلي»؟

ـ المكلف في الأصل باستقبال «مارتن» في باريس. إنه صديقي المفضل. كم هي الحياة الإنسانية مرهونة بالظروف، أليس كذلك؟ لو أن مكوَّرة عنقودية يتيمة لم تدخل رئتَي «ويلي»، لما كنتُ أعرف

اليوم ولو اسم «مارتن»، ولما كنتِ أنتِ في باريس، ولما وجدَ هو مَن ينقذه... ولكن «ويلي» أُدخل مستشفى «مارموتان» بصورة مستعجلة في اليوم نفسه الذي يفترض أن «مارتن»... ولهذا حدث أن «فولف»...

ـ لا شك أنه اسم حربي آخر، أليس كذلك؟

ـ إننا نعيش أزمنة حرب. حدَّد لي موعدًا للقاء مستعجل، لأن شخصًا يُدعى «هانز» سيصل قادمًا من بلادنا خلال ساعتين. كان عليَّ أن أستقبله، مع أن الشخصين القادمين السابقين كانا من نصيبي، وكان لديَّ كثير من العمل المبرمج مسبقًا. مثلما كانت عليه الحال تقريبًا حين كنت أعيش في...

ـ أي نوع من العمل؟

ـ كنت أعمل هناك في جريدة.

ـ أي جريدة؟

ـ لقد أغلقوها منذ ست سنوات. أشك في أن تكوني قد عرفتِها. فقد كنتِ فتية جدًّا عندما...

ـ مَدرستي كانت قبالة جريدة.

ـ لا أحب الحديث في هذا الأمر يا «بربارا».

ـ أفهمك. وماذا تفعل هنا؟

ـ أتكلم الفرنسية بصورة جيدة، لكنني لا أستطيع ممارسة مهنتي. أعيش على منحة ضئيلة لإعداد بحث عن طقوس الزواج عند العبرانيين، كشكل بدائي من أشكال الصحافة.

ـ هل أنت يهودي؟

ـ لا. كيف هم اليهود؟

ـ لستُ أفهم مَن يدفع لحضرتك، وأنت غير يهودي.

ـ إنه بحث احتيالي. فمن يقدمون هذه النقود يعرفون أنني أستخدمها في نشاطات أخرى. مثل استقبال «مارتنكِ». على الرغم من أنها نقود ضئيلة جدًّا تكاد لا تكفينا لأي شيء. ولولا عمل «كلاوديا»...

ـ «كلاوديا»؟

ـ زوجتي.

ـ لك زوجة؟

ـ أيسعدكِ أن تعلمي أن لي زوجة؟

ـ الحقيقة، نعم.

ـ لماذا ترتابين بي؟

ـ بماذا تريدني أن أجيبك؟

ـ بالحقيقة. أخبريني بالحقيقة دومًا.

ـ إنني أرتاب بكَ إذن.

ـ أتظنين أنني أحاول الحصول على معلومات عن «مارتن»، وأحاول توريطكِ؟

ـ لقد قلتُ لك من قبل، ليست لديَّ أدنى فكرة عمن تكون حضرتك. لا أدري إن كنت تعرف «مارتن»، ولا إن كان هنالك للمدعوة «كلاوديا» أي وجود.

ـ لحُسن الحظ أن «كلاوديا» موجودة.

ـ وكيف تكسب قوتها؟

ـ أُفضِّل عدم التحدث في هذا الأمر.

ـ وأنا أُفضل قطع المحادثة، لأنك لا تجيب عن أي واحد من...

ـ اعذريني لمقاطعتك. هل تنتعلين حذاءك؟

ـ لا أرى سببًا...

ـ أجدكِ شديدة التوتر. حين يضغط الحذاء قليلًا على قدميك، تصبحين هكذا عادة. إذا ما خلعتِه واسترخيتِ...

ـ إذا أردتني ألا أكون متوترة، توقف عن الكلام عن ملابسي وشخصيتي، وهي أمور لا تعرف عنها أي شيء، وأجبني دفعة واحدة. كيف تكسب زوجتك قوتها؟

ـ لماذا كل هذا الاهتمام؟

ـ أريد تفاصيل يا «ليون». كثيرًا من التفاصيل. كي أتأكد من أنك تقول لي الحقيقة.

ـ وماذا لو أعطيتكِ كثيرًا من التفاصيل وكانت كلها زائفة؟

ـ مع الوقت ينكشف ذلك دائمًا. عندما تكون إحدانا قد عملت لزمن طويل مع أطفال... حين لا يقبلون تقديم تفاصيل فذلك لأنهم يكذبون.

ـ لا أريد أن تأخذي انطباعًا سيئًا عن «كلاوديا». في المنفى ينتهي الأمر بأحدنا إلى عمل أشياء لم يتوقع قطُّ أنه سيعملها. مواهب نتمتع بها في بلادنا وتفيد في تسليتنا أو إمتاعنا أو... «كلاوديا» كانت تطبخ دومًا بصورة رائعة. أفضل من طاهية محترفة، أفضل من طاهية فرنسية. لم تكن هذه هي مهنتها. كانت محامية. ولكن عندما جئنا إلى باريس اختارتها جماعتنا لتولي أمر العشاءات التضامنية. وبهذه الطريقة تعرفنا على «أنطوانيت سيفر». كنتُ أقوم على خدمة مائدتها: إنها بدينة بدانة هائلة، وقد نظفَت الصلصة حتى آخر قطرة في طبقها وكانت تنظر بطرف عينها وبشهية إلى الطبق المجاور. «أنطوانيت»...

ـ انتظر. أهذا هو اسمها الحقيقي؟

ـ أجل.

ـ وبسبب أي معجزة تقدم لي اسمها الحقيقي؟

ـ لأنه لا فرق في أن تعرفيه. ما زلتُ أتذكر كيف شعرتُ، في موعد تقديم التحية، بيد ضخمة تمسك بقميصي، وبصوت بالغ العذوبة والنعومة، كما لو أنه يقودني في المطلق بحجم قفصه الصدري، صوت يهمس راجيًا أن أعرفه على الطاهية لتهنئتها. وعندما ظهرت «كلاوديا»، قالت لها «أنطوانيت» إن لديها اقتراحًا تعرضه عليها، ولكنها لا تستطيع أن تخبرها به إلا بعد أن يموت أبوها الذي كان يحتضر في تلك الأثناء. هل أسبب لكِ الضجر؟

ـ تابع. وبالتفصيل.

ـ بعد شهر من ذلك دعتنا إلى جنازة أبيها. وبينما كانوا يُنزلون التابوت إلى الحفرة، قالت بصوت خافت للجثة، بما أنكِ تريدين التفاصيل: «ستكون الحياة الآن مأدبة متواصلة يا أبتاه». ثم التفتت إلينا وسألت «كلاوديا» إن كانت مستعدة لأن ترسل إليها كل يوم ثلاثة أطباق لذيذة: فطورًا وغداءً وعشاءً، بمكونات نقية وطبيعية على الدوام. ترددت «كلاوديا». لقد كنا في مقبرة في نهاية المطاف. ظنت «أنطوانيت» أن المعضلة مالية، فأضافت: «يمكنكِ أن تري أنني قد تلقيت ميراثًا للتو»، وبما أن «كلاوديا» ظلت صامتة لا ترد، أضفت «أنطوانيت» حلاوة على عرضها بالوعد بعلاوة كمكافأة عن كل طبق يروق لها بصورة خاصة.

ـ وهل أقنع ذلك زوجتك؟

ـ لقد كان مبلغًا جيدًا، وما يزيد من الطعام يكفينا كلينا وربما

معنا أحد اللاجئين أحيانًا. أما بالنسبة إلى العلاوة، فالحقيقة أن «كلاوديا» بدت مرتابة، وكانت تعتبر «أنطوانيت» بخيلة. وبالفعل، لم يكن من السهل كسب تلك العلاوة السعيدة الموعودة. ومنذ اليوم التالي كانت «أنطوانيت» قد حررت قائمة اقتراحات وأسئلة حول قائمة أطباق اليوم السابق. ولكنني أظن أن ذلك كان مجرد طريقة لبدء محادثة معي، يا للمسكينة.

ـ مسكينة؟ هل حدث لها شيء؟

ـ لا أظن أنكِ تريدين معرفة ذلك.

ـ ما رأيك لو تترك لي أن أقرر ما أريده بنفسي؟

ـ حسنٌ، كما تشائين. لقد قتلوا «أنطوانيت»، قبل أكثر من أسبوع بقليل.

ـ مَن قتلها؟

ـ لا ندري. أظهروا كما لو أنها عملية سطو. ولكن اللصوص لا يكونون عادة بتلك الوحشية مع... أنا أعتقد أنهم الأشخاص أنفسهم الذين يبحثون عن «مارتن».

ـ مَن هم الذين يبحثون عنه؟

ـ رجلان. أظن أنهما هما.

ـ وماذا فعلوا بـ«أنطوانيت»؟

ـ هذا شيء لن أخبركِ به.

ـ ولِمَ لا؟

ـ هنالك امرأة كنت... أقدرها كثيرًا، نصحتني منذ سنوات طويلة بألا أقدم وصفًا لشخص ميت. قالت لي إن الموت يتكرر من خلال الكلمات. ومسؤوليتنا العامة هي حظر اللغة عن الموت.

ـ يبدو أنها امرأة حكيمة.

ـ إنني محظوظ جدًا لأني تعرفت إليها.

ـ أهي في باريس؟

ـ أجل.

ـ وهل أخطئ إذا فكرتُ في أنها ذات أهمية كبيرة بالنسبة إليك؟

ـ إنني مدين لها بكل ما أنا عليه.

ـ وماذا عن «كلاوديا»؟ ما الذي تقوله عن... علاقتك هذه.

ـ «كلاوديا» لا تعرف شيئًا عنها. لا تعرف أي شيء.

ـ أنت تخون «كلاوديا» معها.

ـ لم أخن «كلاوديا» قطُّ.

ـ وهل «كلاوديا» جميلة جدًّا؟

ـ إنها استثنائية.

ـ وتلك المرأة الأخرى، أهي... مناضلة سرية؟

ـ ليست كذلك بالضبط.

ـ ما اسمها؟

ـ «سوزانا». هكذا تحب أن تدعى.

ـ «سوزانا»؟

ـ أجل.

ـ وما الذي تقوله «سوزانا» بشأن «أنطوانيت»؟

ـ لم تقل أي شيء بعد.

ـ وموتها... أعني موت «أنطوانيت»، ألا يمكن أن يكون... ألا يمكن أن يكون قد حدث لأسباب أخرى؟ أعني أسبابًا ليس لها علاقة بـ«مارتن»؟

ـ هذا محتمل. ولكن هنالك عوامل أخرى تشير إلى وجود علاقة. فقد ذهب لرؤيتها رجلان، وهما شبيهان إلى حدٍّ مريب بشخصين ظلَّا منذ بعض الوقت يراقبان شقة شارع «كانيت»، ويحاولان الحصول على معلومات عن «مارتن» والآخرين. كنت قد حددتهما. بل إنني تبعتهما ذات يوم. وهما الاثنان، كما يبدو، من استجوبا «أنطوانيت». وقد أخبرتني بذلك.

ـ كانت تثق بك؟

ـ أظن أنني كنت صديقها الوحيد. كنت أحمل إليها صحاف الطعام كل يوم. ولم تكن المرة الأولى في حياتي التي أقوم فيها بدور الوسيط، من أجل تجنب الاحتكاكات.

ـ مثلما هي الحال معي؟

ـ أنتِ لستِ مثل «أنطوانيت» يا «بربارا». لقد أخبرتُكِ بهذا من قبل. فهي، خلافًا لك، كانت تصدق كل ما أقوله لها. لقد كانت وحيدة جدًّا. وكانت تقول إن ذلك يروقها، وإنها لا تريد رفقة. ولكنني انتبهت إلى أنها تقول ذلك كي أبقى معها. تذمرها من الطعام كان دعوة للمساعدة، محاولة للتواصل مع أحد ما.

ـ وكنت أنت ذلك الـ«أحد ما»؟

ـ أجل. وقد انتهى بها الأمر إلى أن تكون سخية جدًّا مع القضية. ومعي.

ـ معك؟

ـ ربما يجب عليَّ عدم إخبارك بهذا الأمر، ولكنني من نقود «أنطوانيت» أدفع أجور فندقكِ، وثمن تذكرة سفركِ، وأجرة السيارة... كل شيء.

ـ وهل كانت تعرف أن تلك النقود من أجل...؟

ـ من أجل حالة طارئة.

ـ وأعطتك النقود هكذا، من دون مزيد من الاستفسارات؟

ـ أتريدين أن تعرفي ذلك حقًّا؟

ـ لماذا تسألني دائمًا هذا السؤال؟ لو لم أكن أريد معرفته ما سألتك عنه.

ـ حسنٌ، حسنٌ. ما يحدث أن الناس يثقون بي على الدوام... باستثناء حضرتك طبعًا. لقد كانت «سوزانا» تقول لي...

ـ «سوزانا»، المرأة الأخرى.

ـ «سوزانا» كانت تقول إنني أشبه بمُدَلِّك «مساجات» للروح، الجميع يستشفون أنني غير قادر على أن أسبب لهم أي نوع من الأذى. يخبرونني بكل شيء، بأحزانهم، بجزعهم، بأسرارهم. وكنت أتجاوب معهم مثل قطعة إسفنج مبللة، أخفف من آلامهم. ولم تكن «أنطوانيت» استثناءً.

ـ أنت تستغلها كمستغل للنساء إذن.

ـ هذه قسوة لا مسوغ لها يا «بربارا».

ـ ربما أنت تعرفني أقل مما تظنه. فأنا ممن يسمون الأشياء بأسمائها: لقد كنت تبتز نقودًا من تلك المسكينة...

ـ لم أكن أفعل ذلك من أجل النقود. لقد كان يفتنني البقاء معها بضع ساعات. كنا نتبادل الآراء بينما هي تأكل، جالسة بجلال على الكرسي الذي كان مخصصًا لأبيها. وكنتُ في تلك الحالات بالطبع، ولن أكذب عليكِ، أفكر في أنني سأتلقى في اليوم التالي شيكًا دسمًا

كمكافأة على قائمة الشكاوى. أعني العلاوة الشهيرة. مفترضًا أنها قد أعجبت بصلصة الـ...

ـ ولكن من أجل الحصول على ثمن تذكرة سفري، كان عليك القيام بشيء أكثر من مجرد تبادل الحديث معها، أليس كذلك؟

ـ بما أنكِ تسأليني، أجل.

ـ أأنت مهتم كثيرًا بإنقاذ «مارتن»؟

ـ إنقاذ «مارتن» وإنقاذكِ أنتِ.

ـ أنا لستُ بحاجة لأن تنقذني.

ـ أرجو أن يكون هذا صحيحًا يا «بربارا».

أراها الآن تتنفس بعمق، تُخفض سماعة الهاتف ثم تعيد إسنادها إلى صدغها:

ـ ما الذي قاله «مارتن» عندما تعرَّف إلى «أنطوانيت»؟

ـ لم يتعرف إليها قطُّ. مع أنني حدثته عنها. كان لديه فضول لمعرفة كيف ندبر معيشتنا.

ـ هل عرف «مارتن» اسم «أنطوانيت» الحقيقي؟

ـ لم يعرف الاسم. ولكن... خلال الوقت الذي أمضاه في باريس، أخذته معي عدة مرات إلى حيِّنا وكنت أتركه يرتشف فنجانًا جيدًا من القهوة بالكريمة في مقهى الناصية ريثما أذهبُ لتسليم «أنطوانيت» الطعام. كان من الأفضل ألا تذهب «كلاوديا» إلى هناك إلا أقل ما يمكن. فقد كنتُ أسمعها تدمدم أحيانًا بشتم «ماري أنطوانيت»... هكذا كانت تسميها. وتدمدم بأنها ستذهب لتقطع عنقها إذا ما واصلَت التذمر.

ـ أكانت تحقد عليها؟

ـ كانت تقول إنه يمكن لعشرة سجناء في معسكر الاعتقال في «داخاو» أن يعيشوا شهرًا على ما تنفقه «ماري أنطوانيت» على طبق «بط بالبرتقال»، وتعدد كل أحزان ومآسي هذا القرن بينما هي تطحن الكمون وتخفق البيض وتغلي الكرنب.

ـ كانت تشعر بالغيرة.

ـ مَن؟

ـ امرأتك. كانت تشعر بالغيرة، لأنك كنت تقضي وقتًا طويلًا مع «أنطوانيت»، لأنك كنت تقضي ساعات في التحدث والاستماع إليها. أنت شخص تُحسن الاستماع، أليس كذلك؟

ـ يروقني ذلك.

ـ وتُحسن الكلام أيضًا. مثلما تفعل الآن، معي.

ـ أنتِ من طلبتِ مني تفاصيل.

ـ ولكن ما تقدمه إليَّ ليس تفاصيل، وإنما حكايات، إعدادات، حكايات ضمن حكايات. إنها حيلة شهرزاد القديمة.

ـ حيلة شَهـ... أتتكلم عن «ألف ليلة وليلة»؟

ـ أجل.

ـ وما علاقة حيلة شهـ...؟

ـ أنت تحاول، مثل شهرزاد، أن توقع بي من خلال حكايات.

ـ ولماذا أفعلُ ذلك؟

ـ كي تؤجل أمرًا ما. وسأقول لك شيئًا آخر: أنت تشعر بالخوف مثلها أيضًا.

ـ ظننتُ أن حضرتكِ من تشعرين بالخوف.

ـ أشعر به. ولكن ما تشعر به أنتَ هو نوع آخر من الخوف. أنا أظن أنك...

ـ ماذا؟

ـ أنك تشعر بالخوف مني.

ـ أشك في أن تُقدمي حضرتكِ على قطع عنقي، مثل الملك الذي كان يهدد شهرزاد.

ـ فلنرَ.

ـ أيمكنني طلب جميل منكِ؟ بما أننا بلغنا هذا الحد من الحديث، أيمكن لنا...؟ أشعر بصعوبة كبيرة في التعامل معكِ بهذه الطريقة الرسمية. ما رأيك في أن نرفع الكلفة؟

ـ حضرتك تريد أن نتعامل من دون كلفة، وأنا أريد... ما أحتاج إليه حقًّا هو معلومات.

ـ اسأليني، وأعدك بأن أرد بأفضل طريقة أستطيعها.

ـ بلا حكايات؟

ـ بلا حكايات.

ـ لا بأس. تهمني علاقتكَ بـ«مارتن». ما زلت لا أفهم ما هي طبيعة العمل الذي تقوم به مع... أنتَ تستقبل «مارتن»، وماذا بعد ذلك؟

ـ أنقله بعد ذلك إلى بلد آخر كي يتدرب، وأتأكد من أن أهله، أسرته، أصدقاءه...

ـ حبيبته.

ـ ... وخصوصًا حبيبته، إن كانت له حبيبة. ألا يرتابوا جميعهم في شيء. أن يقتنعوا بأن كل شيء يمضي ببراءة.

ـ ومع ذلك، يبدو أن هناك من يرتاب بأن «مارتن» عضو في...

ـ عضو في...؟

ـ لا أريد التحدث عن هذا الأمر في الهاتف. ما أعرفه هو إذا كنتم ما تقولون إنكم عليه، فإنكم لم تقوموا بعملكم على أحسن وجه. ما دام هنالك من يبحثون عن «مارتن» من أجل...

ـ ولكن ليس السبب أنني أسأت القيام بعملي يا «بربارا». فأنت التي تعرفين «مارتن» جيدًا، لم تلحظي أنه موجود خارج باريس خلال هذين الشهرين، أليس كذلك؟

ـ خداعي أنا أسهل من خداع الـ...

ـ كان يمكن لـ«مارتن» أن يملأ رسائله بإحالات زائفة إلى شوارع حقيقية، وبزيارات لا وجود لها إلى مطاعم موجودة بالفعل، لأنني أنا من رحت أشيد له، خلال أسبوع، خلال أسبوع وجيز، قصة متخيلة متكاملة لما ستكون عليه حياته في باريس. ليس من السهل التوصل إلى جعل مناضل، يجهل هذه المدينة تمامًا، يعيشها بعمق خلال أسبوع واحد. أقول لك ليس الأمر سهلًا بأي حال.

ـ لا يمكنك أن تعرف مدى الأسى الذي توقظه فيَّ: أنت و«مارتن» في تجوالكما في شوارع باريس.

ـ لا شيء من التجوال: ركض من دون راحة من أجل جمع مادة تفيده طيلة بقية العام. ما يشبه واحدة من ليالي الحب التي لا تتكرر وتبقى ذكراها فينا طوال أكثر من حياة.

ـ وفِّر عليَّ أشعارك يا «ليون». فلديَّ ما يكفي من أشعار «مارتن».

ـ ألم يعجبكِ ما كان يكتبه لكِ «مارتن»؟

ـ أكاذيب.

ـ وتلك الرسالة، لا أدري إن كنتِ تتذكرينها، التي يصف لكِ فيها «مارتن» زيارته لمتحف اللوفر...

ـ أتذكرها.

ـ كنت أتوقع أنكِ تتذكرينها. تمثال «فينوس ميلو»، على سبيل المثال: ما يكشفه الصدر وما يعد به، ذلك الصدر الذي يعرف ما يريده ولا يستطيع امتلاكه، والبتر الفظ للذراعين والفخذين. المرأة الحارة التي استُخدمت موديلًا ماتت منذ آلاف السنين، ولكنها لا تزال جاهزة لممارسة الحب، جاهزة لأن تحب فيما وراء أعمال بتر الزمن تلك، فيما وراء الحجر، من أجل...

ـ يكفي.

ـ لماذا؟ ألا يعجبكِ؟

ـ إنها كلمات كتبها «مارتن» لي. ليس لك الحق في قراءتها، وأقل من ذلك حفظها عن ظهر قلب.

ـ ما الكذب في هذه الرسالة؟ المهم أن التمثال موجود، مثلما أنت موجودة في جسدك، والكلمات موجودة لتَواصل امرأتين هكذا. الشيء المصطنع الوحيد هو حياة «مارتن» هنا. أم إن الأمر ليس كذلك؟

لا تقول المرأة شيئًا. تنتظر منه أن يواصل.

ـ حين يصف لكِ شارع «كانيت»، وحين يحدثكِ عن لون

مفرش السرير، عن طريقة تسلل الشمس الباريسية، التي أغوت كثيرًا الانطباعيين، من خلال الزجاج المتسخ، عندما يحدثكِ عن الصخب الذي يتعالى من الشارع الضيق كأنه ينطلق من مدفع، وعن رائحة الثوم في الحانات هناك في الأسفل...

- أجل. لقد وصف لي هذه الأشياء بالضبط، وأن...

- كل شيء صحيح، لقد عاش ذلك كله في تلك الشقة التي أعارنا إياها متعاطف فرنسي كي يتمكن مناضلونا من تذكر تجربة حقيقية حين يكونون بعيدين. فمن أجل الخداع بأناقة، مثلما قالت لي ذات يوم «سوزانا»، لا بد من الإحاطة بحقائق جزئية.

لا تقول له المرأة شيئًا لوقت طويل. ومن الشارع يصعد صوت امرأة تعنف طفلًا بلغة مجهولة، لغة ليست الفرنسية، ولكنها ليست كذلك لغة «بربارا». فينفجر الطفل في البكاء.

وأخيرًا تتكلم المرأة:

- أنت تعرف «مارتن» بعمق إذن؟

- معرفته بعمق كلمة كبيرة. في البدء كنت أعرف «سطح» هويته. الوقائع الموجودة في الملف الذي أعده «مارتن» قبل أن يخرج من... إنها معلومات عن الأبوين، اللقاحات، الرحلات إلى الجبال، أصدقاء المدرسة الذين لم يكونوا قد دخلوا مرحلة الشباب بعد. ثم رحت أستخلص منه بعد ذلك، شيئًا فشيئًا، معلومات خفية أكثر، خلال الأسبوع الذي أمضيناه معًا، كما لو أنني كاهن اعترافه تقريبًا.

- أشياء عني؟

- أجل.

ـ أي أشياء؟

ـ كل شيء.

ـ أي أشياء؟

ـ كل شيء. أذواقكِ، كلماتكِ المفضلة، الحماية التي يوفرها لكِ أبوكِ، موت أمكِ، الأموال التي خلَّفتها لكِ، كيفية استخدامكِ لها، العمل الذي تقومين به مع الأطفال، كيف تتمكنين من جعلهم يلتقطون صورًا لأحلامهم... كل شيء.

ـ وهو، ما الذي كان يعرفه عنك؟

ـ لا شيء.

ـ لم يكن يعرف حتى اسمك الحقيقي؟

ـ لا شيء.

ـ لأسباب أمنية؟

ـ أجل.

ـ هذا يروقك، صحيح. معرفة حياة الآخرين الخاصة...

ـ الحياة الخاصة في هذا العالم مجرد حلم يا «بربارا». حين يجري تعذيب شخص لا تبقى حياة خاصة لأحد.

ـ ولكنك تحب معرفة كل شيء عن الآخرين وألا يعرفوا هم أي شيء عنك، أليس كذلك؟

ـ لا، لا يروقني ذلك مطلقًا. لو تعلمين مدى ما كنت أشعر به من رغبة في إخبار «مارتن» بشيء عني، أن أجمع له فتات حياتي.

ـ ولكنك ترويها لي.

ـ أجل.

ـ لماذا لي أنا؟

ـ ليست المرة الأولى.

ـ لستُ أفهم.

ـ ليس مهمًا.

ـ أخبرني.

ـ كنتُ أصحح رسائل «مارتن»، ورسائل الجميع في الواقع.

ـ لماذا؟

ـ قبل أن أُرسل، بطابعٍ فرنسي، رسائل «مارتن» أو التي يكتبها أي شخص آخر من مناضليَّ، كنت أقرؤها وأتأكد، على سبيل المثال، إن كان قد أخطأ بشأن الأجواء التي عرفناها في باريس، أو تفاصيل كثيرة أخرى يمكن لها أن تكشف أنهم ليسوا هنا. وعندئذ أُجري التصحيح أو أضيف شيئًا. وتحسبًا لحدوث أمر طارئ، كانت لدينا كومة من الأوراق التي وقَّعها «مارتن» والآخرون، من أجل أن نتمكن من... فلنفترض قدوم أحد الأقارب للزيارة. وهؤلاء ليسوا كثيرين في الحقيقة، لأن الخروج من بلادنا ليس بالأمر السهل. ولكنه حدث لنا ذات مرة مع العم «فرانتز»، فاضطررنا إلى أن نرسل إليه ملاحظة صغيرة مستعجلة نقول فيها إن «فرانتز» قد سافر في رحلة إلى إيطاليا، من أجل ألا يُلاحظ غيابه.

ـ ولم يكن هؤلاء الأقارب ينتبهون إلى ذلك الاستبدال؟

ـ سياق الكلام يوفر تسعين في المائة من الترجيح. ما أعنيه أنه عندما فتح ذلك العم رسالة وصلته من باريس، وكانت تحمل توقيع «فرانتز»، وتغص بتفاصيل عن حياته هنا، لم يخطر له أنه يمكن أن يكون من كتبها شخص آخر. سياق الكلام. وكذلك السذاجة طبعًا. الناس يصدقون ما يرغبون في تصديقه.

ـ في بعض الأحيان لا.

ـ هل انتبهتِ أنتِ إلى الأمر؟

ـ وإذا قلتُ لك إن... إنني انتبهت إلى شيء ما؟

ـ ماذا؟

ـ شيء ما.

ـ أأنتِ متأكدة؟

يتأخر ردها، كما لو أنها ليست في هذا الفندق بفرنسا وإنما في مكان آخر.

تقول المرأة:

ـ لا.

وهو الآن من لا يرد.

يقول أخيرًا:

ـ لا بد أنها مخيلتكِ.

ـ ربما.

ـ كان من الصعب عليكِ أن تنتبهي. لأن هنالك، في حالتكِ، سببًا آخر إضافيًا. سوف... سأخبركِ شيئًا لا يعرفه أحد.

ـ اسمك الحقيقي؟

ـ ليس بعد. سأخبرك بشيء جرى لي منذ زمن بعيد.

ـ كم كان عمرك؟

ـ كنتُ قد أكملت للتو الثانية عشرة. كان لي أخ أكبر مني. وهو من كان يحميني من... فالأطفالُ الكبار في المدرسة التي كنا نرتادها كلانا كانوا...

ـ ماذا؟

ـ يحبون أن يضربوني. لا بد أن هنالك شيئًا ما في وجهي. توجد وجوه تستثير الرغبة في ضربها، وذات يوم لم يعد أخي قادرًا على حمايتي. فقد اضطر إلى ترك المدرسة، ووجدت نفسي وحيدًا. أو أنني كنت سأظل وحيدًا حقًا لو لم أكتشف، بفضل نصائح «سوزانا»...

ـ هي نفسها من جديد!

ـ أجل، هي من جديد.

ـ أتعرفها منذ سنوات طويلة؟

ـ منذ الليلة التي أكملت فيها الثانية عشرة من عمري. لحسن الحظ. لأنني اكتشفت بفضلها أنه يمكنني «شراء» الحماية من بلطجية المدرسة. لا بد أنكِ تعرفين أناسًا قادرين على تقليد الأصوات. حسنٌ، أنا قادر على تقليد كتابة الآخرين.

ـ أي أنك فضلًا عن انتهاكك المراسلات الخاصة، كنت مزيِّفًا أيضًا.

ـ لا تعجبني هذه الكلمة، ولكنني أعترف بأني كنت كذلك في البدء، لم أكن أكثر من مجرد نسَّاخ متوسط المهارة. الأساتذة يرسلون ملاحظات تنبيه حول سلوك التلاميذ أو عدم اجتهادهم، فأزيِّف توقيع الآباء بتقديم إشعار باستلام التنبيه. ولكنني سرعان ما تجاوزت مرحلة الانتحال الخالص تلك وانتقلت، بفضل تعليمات «سوزانا» أيضًا، إلى مرحلة الهجوم، فصرت أصوغ رسائل اعتذار مقتضبة ومشغولة بإتقان، وأُضمنها اقتراحات كذلك. وبفضلي صار بإمكان عدد من زملاء المدرسة أن يتغيبوا عن الدروس من دون أي مشكلة.

ـ ولم يشُك أحد في شيء قطُّ؟

ـ مطلقًا. في أحد الأيام عرض مدير المدرسة على أبي ملاحظة متعجرفة كنت قد كتبتها باسمه، أحتجُّ فيها على مقانق سيئة جدًّا طهوها لنا. وأقر أبي بأنه قد كتب تلك الملاحظة، مع أنه اعترف لي فيما بعد بأنه لا يتذكر أنه كتب شيئًا مثل ذلك، مع أن الرسالة مكتوبة كما كان يمكن له هو نفسه أن يكتبها. إنها له. عندئذ أدركتُ أن «سوزانا» محقة: فما كنت أحاكيه، أكثر من محاكاتي لآلية الخط، هو الأسلوب، الطريقة المعهودة التي يعبر بها الأشخاص عن أنفسهم حين يكونون أمام قصاصة ورق. كنتُ أحاكي الروح.

ـ أنت تؤمن بالروح؟

ـ لا.

يضحك كلاهما معًا ثم يصمتان.

ـ ولماذا كنتَ بحاجة إلى «سوزانا» لتكتشف موهبتك الحِربائية تلك؟

ـ لم يكن لديَّ أحد آخر في الدنيا... أحد يعرفني، أو يهتم بي. قالت لي: «أنتَ إسفنجة امتصاص آلام الآخرين.. استخدم ذلك، اعكس نفسك في الآخرين، اكتشف ما يريدونه، واحمِ نفسك».

ـ وإذا كانت لديك كل هذه المهارة، أيمكنك أن تنتبه لما أشعر به الآن أم لا؟

ـ حول ماذا؟

ـ حول أنك قد تجسست عليَّ من دون رضاي، وانتهكت حرمة حياتي الخاصة.

ـ لقد قلتُ لكِ من قبل إن الحياة الخاصة في عالم كعالمنا مجرد

حلم يا «بربارا». أم إنك تظنين أن هؤلاء الرجال الذين يحكمون بلادنا يحترمون الحياة الخاصة؟ إذا ما أمسكوا بـ«مارتن»...

ـ ولأنهم يتجسسون، تبيح لنفسك أنت أيضًا أن تتجسس؟

ـ أجل، من أجل الحفاظ على البقاء في العالم الذي خلقوه هم، أجل.

ـ لقد كانت حياة «مارتن» بين يديك إذن.

ـ لم أفهم.

ـ مصيره، حياته، موته، يعتمد عليك.

ـ مثل الآخرين. لا أكثر ولا أقل من الآخرين.

ـ ولم يكن لديه خيار آخر سوى منحك ثقته الكاملة.

ـ لا أحب أن تكلميني بهذه الطريقة.

ـ أجبني. هل كان لديه خيار آخر؟

ـ لا.

ـ يخطر لي أنه من المستحيل، من دون الثقة، أن تتمكنوا من مواجهة أعدائكم، أليس كذلك؟ هذا يعني: «مارتن» كان يثق ثقة عمياء في الشخص الذي خصصته له المنظمة ليكون صلة اتصاله. أم إنني مخطئة؟

ـ لم تخطئي. الثقة هي الأمر الجوهري في العمل السري، إنها مثل الهواء الذي نتنفسه.

ـ وإذا انكسرت هذه الثقة، لا يبقى إذن أي شيء؟

ـ لا. يبقى الإيمان بالنصر، الإيمان بالقضية.

ـ وإذا ما اختفى هذا الإيمان؟

ـ عندئذ سنضيع حقًّا.

ـ أنتم بالنسبة إليَّ قد ضعتم. فكل هذا يبدو لي عملًا غير أخلاقي.

ـ أي أمر تعنين؟

ـ كل شيء. بناء قضية ونضال على أكاذيب وتلاعب بالناس. أنتم منذ البدء... انتظر لحظة، هل كنت أنت من كتب رسالة «مارتن» التي تقول فيها إنه عليَّ المجيء إلى هنا؟

ـ أجل، أنا كتبتها.

ـ هو لا يعلم إذن أنني موجودة في باريس.

ـ اسأليه عندما يصل.

ـ ما كنتُ أفكر فيه أنه لا يعلم بالأمر.

ـ أنا لم أقل هذا.

تنتظر هنيهة، تتنهد بعمق، تضع سماعة الهاتف إلى جانب آلة التصوير، فوق الوسادة، وتنظر إلى الشيئين كما لو أنهما متطابقان بصورة غريبة، كما لو أنهما حشرتان. تغطي آلة التصوير بالملاءة وترفع السماعة من جديد.

ـ متى حدثك «مارتن» عني أول مرة؟

ـ كنت أعرف معلومات عنكِ من خلال الملف. ذهبنا إلى مقهى عند زاوية ساحة «سان سولبيس» ـ أقول هذا لأن التفاصيل تهمك ـ كي نعدَّ قائمة بمن يمكن لهم أن يكتبوا إليه، وقفز اسمك على الفور.

ـ ماذا قال عني؟

ـ قال إنكِ في العشرين من العُمر، وإنكِ رائعة، عقلكِ أكبر من

سنك، ذات بشرة برونزية، ولديكِ فائض من الحيوية. وكيف رحت تجندين أولئك الأطفال وتعلمينهم التقاط صور أحلامهم. وأن النتيجة كانت لا تصدق. وأنك أنتِ نفسك مصورة ذات عين...

ـ أكان يبدو عاشقًا؟

ـ عاشقًا جدًّا.

ـ أقال إننا سنتزوج فور عودته؟

ـ أجل.

ـ أقال إننا لم نكذب أحدنا على الآخر قطُّ؟

ـ لا، لم يقل شيئًا من هذا.

ـ هذا ما كانت تمضي عليه علاقتنا. والآن، بعد ما حدث، لم أعد أعرف إن كان يمكنني الزواج منه.

ـ لا تُصدري عليه حكمًا مسبقًا. ليتكِ تعلمين كم كان مستاءً من خداعه لكِ. «إن قلبي يتمزق كلما اضطررتُ إلى الكذب عليها»، هذا ما كان يقوله. وقد أجبته بأنكِ ستعرفين ذلك ذات يوم وستسامحينه.

ـ هذا ما تقوله للجميع، أليس كذلك؟ الجملة نفسها. لأنه كان على الجميع أن يخدعوا حبيباتهم.

ـ لقد قلتُ هذا للجميع. وصليت من أجل أن يكون صحيحًا. مع أنني توقعت أن بعضهن لن يسامحنهم.

ـ وهذا ما حدث؟

ـ هذا ما حدث. وفي حالات عديدة، انتهى الزيف إلى القضاء على الثقة والمحبة، وقُطعت العلاقة. عندما كنت أتكلم في هذا الموضوع مع «كلاوديا»، كانت تواسيني. تقول لي: «إن علاقة لا

تتجاوز هذا النوع من التجارب ليست جديرة بالبقاء». ولكن هذا غير صحيح: هنالك علاقات رائعة يمكن لها أن تنتهي إلى الضياع بسبب كذبة.

ـ ولكنكَ كررت، مع ذلك، هذا الكلام نفسه مع «مارتن».

ـ مثلما مع جميع الآخرين: «استمضيان قُدمًا»، هذا ما قلته له: «ستزداد أنت وهي تصلبًا بهذا الاجتياز للصحراء». إنها عبارة فرنسية طلبتُ من «مارتن» أن يدونها من أجل استخدامها في رسالة آتية: «لا ترافيرسيه دو ديزير» (اجتياز الصحراء). فنظر إليّ بأسى... ولكنني بدأت أضجركِ. سوف تتهمينني بأنني مثل شهرزاد.

ـ بالعكس أيها السيد شهرزاد. يمكنك أن تسترسل في هذا الأمر قدر ما تشاء.

ـ «أخشى أن نصل إلى الانفصال»، هذا ما قاله لي «مارتن»، وهو يكشط سُكَّر القاع بالملعقة الصغيرة، مُعذبًا الفنجان الفارغ. «أي علاقة أستطيع بناءها إذا كنت لا أستطيع أن أخبرها من أكون، أو ما الذي أفعله. إذا ما هي فكرت في أنني، بوجود الفاشيين في السلطة، قد سافرتُ إلى باريس من أجل دراسة عليا لهندسة العمارة، كما لو أن كل شيء لا يهمني مقدار لعنة؟»، وأنا سألته فقط إذا ما كنتِ تفكرين في أنه جبان، وغير مبالٍ.

ـ وماذا أجابك هو؟

ـ قال لي: «أسوأ ما في الأمر أنها ليست كذلك.. إنها تشك في أنني متورط في شيء سياسي. بل بلغ بها الأمر سؤالي عن ذلك، هكذا، بصورة مباشرة، قبل أن أسافر: «أنت ذاهب إلى فرنسا... لأمر آخر». هذا ما قالته لي». هذا ما أخبرني به «مارتن».

ـ لم أقل له شيئًا من هذا الكلام قطُّ.

ـ هو يؤكد أنكِ قلتِه، «كما لو أنها تقرأ أفكاري».

ـ أنا لم أتطرق إلى مثل هذا الموضوع معه. ومع أي شخص آخر في الواقع.

ـ قال «مارتن» إنه اضطر إلى بذل مجهود كي تعتقدي أنه جبان. بينما كان يفضل في الواقع أن تفكري أنه كاذب وعضو في المقاومة. قال لي: «مهما كان ما سيحدث، سوف أخسرها».

ـ أقال هذا؟

ـ هذا ما قاله: «سوف أخسرها، سوف أخسرها».

ـ وماذا حدث عندئذ؟

ـ أخرج صورتكِ.

ـ صورتي؟

ـ أجل. ومررها إليَّ.

ـ وماذا فكرتَ أنتَ؟

ـ حول ماذا؟

ـ بشأني.

ـ ما فكرتُ فيه حين رأيتُ صورتكِ؟

ـ أجل.

ـ لماذا تسألينني؟

ـ لقد كانت المرة الأولى التي تراني فيها، أليس كذلك؟ ماذا فكرت فيَّ؟

صمتٌ طويل. ولولا تنفس ذلك الرجل الخفيف والنائي، لأمكن

لها أن تظن أنه لا وجود لأحد في الجانب الآخر من الخط. وعندما يعود هو إلى الكلام يفعل ذلك بهمس خافت جدًّا تكاد لا تسمعه، كما أنه يشعر بخوف من سماع كلماته نفسها.

ـ لا أدري كيف أرد على هذا.

ـ لا أفهم.

ـ تفهمين. لقد فهمتِ مذ بدأنا التحدث في الهاتف.

ـ ماذا أفهم؟

ـ منذ لحظة قلتِ إنني أشعر بالخوف، أتذكرين؟ وإنني أريد تأجيل شيء ما.

ـ أجل.

ـ هذا هو ما كنت أريد تأجيله. هذه اللحظة.

ـ لحظة الحديث عني؟

ـ لحظة الحديث عما شعرت به حين رأيت صورتكِ. سأخبركِ، وفور الانتهاء سأقطع الاتصال. وسأعود للاتصال بكِ بعد انقضاء ساعة أخرى.

ـ ما الذي يمكنك قوله وتكون له هذه الرهبة؟

ـ فتح «مارتن» محفظة جيبه بحذر شديد وسحب منها الصورة و...

ـ و...؟

ـ وكانت هي.

ـ هي.

ـ بالضبط، كانت هي حسابيًّا، بصورة نهائية.

ـ مَن؟

ـ امرأة أحلامي. المرأة التي ظللتُ أحلم بها في كل ليلة من حياتي مذ أتممت الثانية عشرة من العمر. لقد كنتِ أنتِ، «سوزانا».

وعندئذ سمعت المرأة صوت «كليك» الذي يعلن أن الاتصال قد انقطع.

لم أخبر أحدًا أي شيء عنها قطُّ.

لقد حظرتْ عليَّ ذلك. قالت لي في تلك الليلة التي ظهرتْ لي فيها أول مرة: «لا تفعل.. لن يصدقوك. وعندما يسألونك عن عمرك، قل لهم إنك موجود، مثلهم، منذ اليوم الذي ولدت فيه. ولا تقل لهم الحقيقة». كانت تكرر لي هذا الكلام في كل مرة تستطيع فيها ذلك. «إياك أن تقول إن حياتك بدأت في الليلة التي حلمت فيها بي. إياك أن تفعل».

وقد أطعتُها. تقيدتُ بأوامرها. امرأة أحلامي.

امرأة أحلامي!

هذه الجملة تبدو كأنها تزهر في فمها وفي فمي، ولكنها في فم أي شخص آخر تصبح فارغة، مبتذلة، زائفة، بل ومهينة. «امرأة أحلامي»، يقولها الرجال كي يغووا أنثى لا تريد الاستسلام لهم. «امرأة أحلامي»، من أجل تملق الأنثى التي استسلمت لهم من دون التفكر مرتين فيما يقولونه، ومن أجل أن يُبْهِروا أصدقاءهم في البار، في الجيش، في المكتب. كما لو أنهم تخيلوا حقًّا الشبح الحي للمرأة التي باركت أجسادهم النائمة في الليلة الفائتة.

أسمعهم وأشفق عليهم. لا يعرفون ما الحلم بامرأة كاملة ومجهولة كل ليلة في الحياة. لا يعرفون ما الانتظار، بلا أمل، أن تظهر لك في صباح اليوم التالي، بصورة إعجازية، عند نزولك إلى الشارع. لا يعرفون ما هو ترتيب الوجود كله من أجل اليوم الذي تقرر هي فيه أخيرًا أن تظهر لك في الواقع.

هم لا يعرفون ذلك، أما أنا فأعرفه.

أنا تجرأت.

وهي منحتني الحياة حين حلمت بها أول مرة، في تلك الليلة التي أكملتُ فيها الثانية عشرة من عمري. ومع أننا لم نمارس ما يسمى الحب، فقد كانت أشبه بليلة زفاف، بالنسبة إليّ وبالنسبة إليها، كما لو أننا قد تزوجنا في تلك الليلة إلى الأبد. ولم تكن هنالك حاجة لطلب أو لوعد أن نعود للقاء، لأننا كلينا كنا نعرف أنها ستأتي كل ليلة إلى موعد أحلامي. ولم تكن ثمة حاجة للتنبؤ بلقاء آخر، لأنها هي نفسها، في الليلة التالية، كانت تنتظرني تحت جفوني النائمة. ولم تكن ثمة حاجة لأن نستعد لليلة إعجازية ثالثة، لأنها عادت هي نفسها، سليمة لم تُمس كالعادة. وفي الليلة الرابعة، تساءلتُ لماذا الاستيقاظ، لماذا لا أظل هناك داخلًا، في أحلامي، متحدًا مع حبي إلى الأبد. ولكن «سوزاناي» أجابت بأنه عليَّ أن أخرج لأبحث لها عن حياة، وأن أجيء لها بدقائق وطعوم وذكريات من العالم، وأنه إذا ما توسطتْ، ليلة إثر ليلة، تضحيةُ الأيام المعيشة في السهر، ستحقق هي بدورها بالمقابل وعدها بأن يتجسد جسمها في لحظة مستقبلية في العالم النهاري، أن يتجسد من أجلي ومن أجلي فقط. وقد صدقتها، كنتُ أصدق على الدوام كل ما تقوله لي. وقررتُ أن

أعيش من دونها ومن أجلها أيضًا، أنتظرها في الليالي لأروي لها ما حدث لي، وأشاطرها ما يحدث في العالم، وأتلقى نصائحها، ليلة إثر ليلة، من دون استثناء، في كل ليلة من حياتي، طوال ما تبقى لي من الحياة، معها، مع «امرأة أحلامي».

في تلك الليلة الأولى قالت لي إنها كانت تنتظرني منذ ما قبل ولادتي، تنتظر اللحظة التي أكون فيها جاهزًا لاستقبالها. وفي تلك الليلة الأولى أدركتُ، بمذلة، أنني لم أكن أنا من أحلم بها، وإنما هي من تبادر إلى تقديم نفسها في عالم وحدتي الداخلي. وقد قالت لي: «كنتُ أنتظر اللحظة التي ستحتاج فيها إليَّ حقًّا».

وجاءت تلك اللحظة في اليوم الذي اعتقلوا فيه أبي وأخي.

لم يأخذوني أنا، لأن من كان يتولى مسؤولية العملية رأى كعكة عيد الميلاد وعليها الاثنتا عشرة شمعة التي لم تُشعل بعد، فوق منضدة مكتب أبي. فقطع منها شريحة، تذوقها بأصابعه. وبعد أن مضغها برهة قال، بفمه الذي ما زال ممتلئًا، للرجل الذي يمسك بذراعي: «هذا اتركه، لأن هذا اليوم يومه».

وبعد أن ابتلع، قال لي وهو يمص أصابعه: «لقد أعجبتني كعكتك، ولهذا سأقدم إليك هدية أخرى: سنعيد إليك أباك يوم غد بالذات».

وأنجز ذلك. في اليوم التالي، باكرًا، رجع أبي. أما أخي، فأخذوه ليقاتل في الحرب. أبي وجدني في المكان نفسه حيث تركوني، نائمًا تحت منضدة المكتب. لم أكن قد تذوقتُ قالب الحلوى. قال لي أبي: «يا صغيري، هل أمضيت الليل على هذه الحال، وحيدًا، من دون حراك؟».

لم يعلم، لا هو ولا أحد آخر في العالم، أنها هي، امرأة حياتي، قد رافقتني خلال تلك الساعات. لم أُخبر أحدًا بما شرحتْهُ لي في تلك الليلة: كيف أحافظ على حياتي في السنوات الصعبة الآتية. لم أخبر أحدًا كيف ولدتُ، أخيرًا، ولادتي الحقيقية، يوم أكملت الثانية عشرة من العمر.

لقد حظرتْ عليَّ قول ذلك لأحد، وأنا أطعتها.

وقد أمضيت حياتي وأنا أطيعها.

(لأول مرة، لا أعرف إن كنتُ أختلقُ شيئًا. لست أدري إن كان هذا الصوت، صوت الرجل الذي يريد أن تسموه «ليون»، هو من فكر حقًا بهذا الكلام الذي نقلتُه للتو. أم إن هذه الجمل تنتمي إليَّ؟ لست أدري إن كنتُ أتخيل كلماته، أتكهَّن بحياته الداخلية، الآن وقد انتهى من الاعتراف بسره للمرأة المدعوة «بربارا».
ولكنني أعرف، في المقابل، أن ذلك الرجل الآخر الذي يحاول مراقبة هذا الثنائي، ومن لديه مخططات بشأنهما، لا يمكنه سماع ما يفكر فيه «ليون»، ولا يعرفه مثلما أعرفه أنا.
وليس الأمر لأن ذلك الرجل الذي يريد سماع ما تقوله «بربارا» و«ليون» في الهاتف لا يمتلك سلطة. بل على العكس، فهذا الرجل يخيفني بالتحديد لأنه يمتلك سلطة أكبر بكثير مما أمتلكه أنا، وله تأثير أكبر بكثير على مصير «ليون» و«بربارا»، مع أنني أنا الذي من المفترض أن أكون قد منحتهما الولادة، وأنا من سيحاكمه القارئ إذا ما حدث لهما أي سوء.

ليس من السهل أن أكون مسؤولًا عن مصيرهما، وألا أتمكن في الوقت نفسه من أن أستبق أو أمنع ما سيحدث لهما دون مفر، لأن حياة «ليون» و«بربارا» يحددها رجال آخرون في غرف أخرى. ربما لهذا السبب قررتُ أن أتصل بالصوت الأكثر حميمية للرجل المدعو «ليون»، كطريقة لإثبات أنني أثق به، أو ربما كي أُقرَّ منطقة في هذه القصة لا يمكن أن يدخلها الرجل الذي يراقبهما عن بُعد... صوت سريٌّ محظور عليه. ومنطقة صغيرة أتحكم بها أنا في هذه القصة. وهذه هي نقطة تفوقي الوحيدة على ذلك الرجل.

إنه لا يعرف أنني موجود.

وليس لديَّ من وسيلة لأن أتحرى كذلك عما يدور في ذهن الرجل الذي يصر على أن يدعوه «ليون».

ـ «سوزانا»!

ـ لا تدعُني «سوزانا».

ـ لو أنكِ تعلمين كم تكلفتُ من الجهد في دعوتك «بربارا» طيلة الصباح، كما لو أنكِ غريبة عني.

ـ إنني غريبة عنك.

ـ لستِ كذلك بالنسبة إليَّ.

ـ لا تكذب عليَّ.

ـ أنتِ تعرفين أنني لم أكذب عليك قطُّ.

ـ قطُّ؟ ثلاث ساعات، لقد تعارفنا منذ ثلاث ساعات. إن كان يمكن اعتبار هذه الأحاديث طريقة من...

ـ عليكِ أن تدركي أنني أعرفك منذ خمسة وعشرين عامًا.

ـ في أحلامكَ.

ـ أجل.

ـ اشرح لي كيف توصلت إلى هذه المعجزة: حلمك بي قبل أن أولد؟ أم إنك نسيت أن عمري عشرون عامًا؟

ـ لا يوجد تفسير عقلاني. الأمر هكذا ببساطة. أنا نفسي لا أفهمه. لو كنت أؤمن بوجود الرب...

ـ أنت لا تؤمن بالرب.

ـ لا. لكن هذا سيكون دليلًا على وجوده. اسمعي، لا أريد إضاعة الوقت في التأملات. يكفيني أن أكون ممتنًا لإنجازك وعدكِ.

ـ أي وعد؟

ـ الوعد الذي قطعتِه لي في أول ليلة جئتِ لرؤيتي.

ـ ليلة إتمامكَ الثانية عشرة من العمر.

ـ تلك الليلة.

ـ وأي وعد قطعتُهُ لكَ تلك المرأة؟

ـ وعدَتني بأننا، إذا ما اعتصمتُ بالصبر، سنلتقي ذات يوم وعندئذ... حسنٌ، إنكِ ستجدين عندئذ الطريقة للـ...

ـ أتدري يا «ليون»؟ هذه المحادثة ستكون أكثر سهولة إذا ما تخليت عن هذه القصة الصبيانية التي تحلم بها منذ خمسة وعشرين عامًا. لماذا لا تتقبل أن «مارتن» جلس في ذلك المقهى وبدأ يتحدث عن روائع المرأة الصغيرة التي خلفها وراءه، وعندئذ رأيتَ أنت الصورة ولم تتعرف إليّ ولو مقدار لعنة ولكنك ظللت...

ـ ظللتُ؟

ـ حسنٌ، لا شك في أنك جعلتني فكرة متسلطة على عقلك. فلنقل إنك قد وقعت في الحب. وكلما كان «مارتن» يحدثك عنها أكثر في الأيام التالية، كانت رغبتك تزداد فيَّ أكثر. وأتخيل كم كان «مارتن» يتبجح مفاخرًا بزوجته المستقبلية، بينما هو يتجول معك في المتاحف مبديًا إعجابه بـ«فينوس ميلو»، و«الجوكوندا»، وبدينات «روبنز»، ونحيلات... ذلك الرسام الجديد، «موديلياني». ولا بد أنه وجد في كل امرأة شيئًا يذكره بي. وحين قال لكَ ذلك الفحل

الكبير: «إنها امرأة أحلامي»، عندئذ بدأتَ تحلم بها، ولم تعد قادرًا على نزعها من رأسك، ومن دون أن تدري كيف، قررتَ أن...

ـ ما الذي قررته؟

ـ قررت، لا أدري إن كان خلال الأسبوع الذي قضاه «مارتن» في باريس أم بعد ذلك، عندما أتيحت لك فرصة استبدال الرسائل، قررتَ أن تأتي بي إلى فرنسا.

ـ أهذا هو تفسيرك؟

ـ أجل.

ـ وأن هذا كله ليس سوى استثارة عابرة؟

ـ لا أدري إن كانت عابرة، ولكنها استثارة... وهذا ما ليس لديَّ شك فيه.

ـ آه يا «بربارا»، كم محزن تفضيلك لتفسير عادي مبتذل، في حين أنني أعرض عليكِ شيئًا أكثر جمالًا بكثير.

ـ لحظة. هل زيفت أم لم تزيف رسالة يطلب فيها «مارتن» مني المجيء؟

ـ نعم.

ـ وهل كنت أنت أم لم تكن من تكفل بتأمين بطاقة سفري، والحجز لي في الفندق والسائق؟

ـ نعم.

ـ بنقود أخذتها من تلك المرأة البدينة المسكينة.

ـ أنا لم أصفها بهذه الصفات، ولكنها كذلك. وحصلتُ على النقود منها، أجل.

ـ و«مارتن» لا يعرف أنني هنا. أخبرني بالحقيقة.

ـ كل ما فعلتُه كان من أجله، من أجلكِ ومن أجله. من أجل إنقاذكما. أول ما فكرتُ فيه، حين أراني «مارتن» صورتك، هو أنكِ في خطر، لأنكِ تحبين مناضلًا سريًا، وإذا ما حدث له...

ـ المناضل الذي كنت تتحكم فيه. وهذا ما فكرتَ فيه: «إن لديَّ الوسائل التي تجعلكِ تأتين لرؤيتي، وإنكما أنتما الاثنان في قبضة يدي». هذا ما فكرتَ فيه.

ـ لم أفكر في أي شيء من هذا. «سوزانا»...

ـ «بربارا»!

ـ «بربارا». منذ خمسة وعشرين عامًا وأنا آمل أن تأتي، منذ خمسة وعشرين عامًا وأنا أستيقظ متسائلًا إن كان هذا اليوم سيكون هو اليوم الموعود. وعندما صرتِ موجودة أخيرًا، مثلما تركتك في الليلة الماضية والليلة التي قبلها وكل الليالي السابقة، عندما صارت هنالك صورة، وهذه الصورة مطابقة لامرأة أحلامي... آه يا «سوزانا»، كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لا أنتظره: أن تكوني حين تعترضين طريقي محظورة عليَّ بالكامل وبصورة مطلقة، وبعيدة عن إكمال وجودي. بل أسوأ من ذلك: أن أكون كذلك حارس زوجكِ المستقبلي.

ـ طبعًا. وعندئذ فقدتَ الأمل و...

ـ لم أفقد الأمل، ولكنكِ لن تفهمي ما حدث. لقد كنتِ تفهمينني في الأحلام، أما الآن فلا. إنكِ شخصية أخرى، أكاد لا أستطيع التعرف إليكِ.

ـ عليكَ أن تأخذ بالاعتياد على أن النساء اللاتي من لحم وعظم، مختلفات عن النساء اللواتي تحلم بهن. أخبرني لماذا لم تفقد الأمل.

ـ كنتِ...

ـ هي. هي. ليس أنا.

ـ هي كانت حية. كانت حقيقية. كنت أخشى على الدوام ألا تكون موجودة. وأن أكون قد عشت الحياة... كيف أعبرُ عن ذلك؟ بلا طائل. باسم وهم محض. لأن كل ما فعلته إنما فعلته من أجلكِ، من أجلكِ، في انتظاركِ أنتِ.

ـ كل شيء؟ بما في ذلك نشاطاتك السياسية السرية أيضًا؟

ـ كي يكون هنالك عالم جدير بكِ. كي يكون العالم عادلًا وجميلًا ونظيفًا عندما تلتقين بي. عالم بلا أناس يتألمون.

ـ لم تخرج معك الأمور جيدًا حتى الآن.

ـ لقد كانت أمورنا سيئة، هذه هي الحقيقة. لم يكن العالم قطُّ أسوأ مما هو عليه. وكلما كان يزداد سوءًا، ويصير الناس أكثر دناءة، وينتهي الأمر بأصدقائي إلى الموت أو التعفن في معسكرات الاعتقال، ونهرب نحن إلى المنفى، كنت أرى ابتعادًا أكبر فأكبر لاحتمال أن تحققي ظهوركِ: كنت أحلم بعالم رائع لاستقبالكِ، عالم بلا كراهية ولا عنف ولا ظلم. وما حدث مع ذلك هو أن العالم الذي قررتِ المجيء إليه هو أسوأ العوالم الممكنة. لكنكِ موجودة. ولكنني إذا كنت قد خسرت رهاني على عالم أفضل، فقد كسبت رهاني ضد الإحصائيات التي كانت تشير إلى أننا لن نلتقي أبدًا. أعني أنه كان يمكن لكِ أن تولدي في سنغافورة، أو في الكونغو البلجيكي، أو في الحبشة، أو في تشيلي، أو في فلسطين، أو في أي مكان آخر

بعيد. كان يمكن لكِ أن تولدي بعد الحرب أو في عصر آخر، أو كان يمكن لك ألا تولدي أبدًا. من يدري إذا لم تكوني تأتين لزيارتي في أحلامي من عصر آخر، من كون آخر، من بُعد آخر. ما الذي نعرفه عن المصدر الذي تجيء منه الأحلام؟ من بين آلاف ملايين النساء اللاتي وطئن هذه الأرض واللاتي سيطأنها، من بين جميع النساء المحتملات اللواتي كان يمكن لي أن أحلم بهن، وممن كان يمكن لهن أن يخترنني أنا بالذات ليزرنني. تصوري سعادتي في أن تكوني أنتِ، امرأة تتنفس هواء عصري نفسه، ومن بلادي نفسها، ومن لغتي نفسها. امرأة يمكن لي ذات يوم حقًّا...

ـ حقًّا؟

ـ أن أمارس الحب حقًّا.

ـ إنك تُقر. أترى؟ مثلما قلتُ لك. مذ رأيتَ الصورة انهمكتَ في البحث عن طريقة لـ...

ـ لا، لا. لم أبحث عن شيء. لم أفعل شيئًا. هذا دوركِ أنتِ.

ـ أنا؟

ـ «سوزانا». يمكن لـ«مارتن» أن يمتلك الصورة وأن يكون له مستقبل معها في متناول أصابعه، ولكنه لن يستطيع التواصل معها مثلما سأفعل أنا. ولهذا لم أفقد الأمل. أعدت الصورة إلى «مارتن» من دون أن ترتعش يدي. واصلتُ الاستماع إليه، عارفًا أنه يكفي أن أنام تلك الليلة، أن أغمض جفني، وستأتي هي بالحل، مثلما كانت تجده دومًا، في كل ليلة من ليالي حياتي. ستجد هي الطريقة لإنجاز وعدها.

ـ ولم تخبر «مارتن» شيئًا من هذا كله طبعًا.

ـ أخبرته أن الصورة حلم.

ـ حلم؟ أبدَت لك لحظة للسخرية؟

ـ يدافع أحدنا عن نفسه كيفما استطاع.

ـ وماذا أجابك هو؟

ـ قال لي: «إنها أفضل من حلم». ثم أضاف: «إنها أكثر شخص واقعي أعرفه».

ـ وماذا بعد؟

ـ لا شيء. الروتين المعهود: مشينا ما تبقى من المساء في الحي، نسجل أسماء مأكولات مختلفة في المخزن الذي على الناصية، ونحدد موقع المتاجر ودور السينما والساحات. اشترينا جريدتين. مررنا لرؤية مبنى «السوربون» حيث من المفترض أن «مارتن» سيدرس، ووضعنا مخطط طريق التجوال للأيام التالية، واستعرضنا البطاقات البريدية التي سلمتها إليه، أمكنة يمكن له أن يتذكرها فيما بعد.

ـ وهل استطعتَ أن تواصل كما لو أن شيئًا لم يحدث؟ أمضيت يومًا عاديًّا مع الرجل الذي كنت تخدعه، كما لو أن...

ـ لم أكن أخدعه. كنتُ أحميه، فالعمل لا بد من القيام به في كل الأحوال. حياة «مارتن»، وحياتكِ أنتِ الآن أيضًا، وحيوات أشخاص كثيرين آخرين، تعتمد على إنجازي لمهمتي.

ـ وهل كنتَ واثقًا من أنها هي ستتولى تسوية المشكلة التي كنتَ تحشر نفسك فيها؟

ـ لقد كانت تمنحني على الدوام نصائح رائعة.

ـ أعطني نصيحة.

ـ لماذا هذا الاهتمام المفاجئ؟

ـ بما أنكَ تقول إنني هي...

ـ أيهمكِ أن تعرفي إن كانت تشبهكِ؟

ـ على العكس. أريد أن أتأكد من أنها لا تشبهني مطلقًا، فمن المثير للقلق أن تُنسب إلى إحدانا أفعالٌ ونصائح و... فلنرَ، قل لي مثلًا، ما هي أول نصيحة قدمتَها إليك في تلك الليلة الأولى؟

ـ في الليلة الأولى طلبتْ مني ألا أخبر أحدًا بهذا. أما النصيحة الأولى فكانت في الليلة الثانية.

ـ أخبرني بها.

ـ هنالك أمور أُفضل عدم التحدث عنها.

ـ أكانت نصائح... جنسية؟

ـ لا، لن تفهمي. لم أمارس الحب معكِ قطُّ.

ـ طوال خمسة وعشرين عامًا؟

ـ مطلقًا.

ـ ألم يعجبكَ جسدي؟

ـ أعجبني إلى حدٍّ كنت معه في تلك الليلة الأولى على وشك أن... لا أريد الحديث في هذا الأمر.

ـ لا أظن أنك قادر على الاختيار، بعد أن بلغنا هذا الحد.

ـ فيما بعد.

ـ الآن، كنتَ على وشك أن...

– راودني إحساس بأنكِ لن تعودي إذا ما مارسنا الحب. عليَّ

أن أنتظر إلى أن يتحول الأمر إلى واقع، قلتُ لنفسي، قلتُ لكِ، قال أحدنا للآخر، وهمستِ أنتِ لي ألا أقلق، وأنكِ ستعودين لمرات كثيرة كلما احتجتُ إليكِ.

ـ وهو ما يعني...

ـ كنتِ تتكلمين كلامًا بالغ الجمال في الأحلام. كنتِ تقولين، مثلًا: «صغيري، في اليوم الذي ستخرج فيه من بوابة الأحلام، ستجدني هناك».

ـ وهل أنجزت وعدها؟

ـ ما كدت أنام في الليلة التالية حتى رأيتُ وجهكِ يُشرق تحت ليل عينيَّ.

ـ أنتَ شاعري أيضًا.

ـ أنتِ مَن علمتني.

ـ وماذا قالت لك هي؟

ـ أرادت أن تعرف كيف أمضيتُ النهار. وقد كذبتُ عليها. قلت لها إنني لم أواجه أي مشكلة.

ـ أكنت قد أمضيته بصورة سيئة؟

ـ ما كنت لأخبرها بيومي المحبط، الأبله، يوم تقليدي لرسمٍ كاريكاتيري في الثانية عشرة من العمر. الحقيقة أن اهتمامي كان منصبًا على...

ـ على...؟

ـ مواصلة ما بدأنا به في الليلة السابقة.

ـ وما الذي جرى في الليلة السابقة؟

ـ أتحتِ لي أن أستكشفكِ.

ـ وما الذي كنت تستكشفه؟

ـ كل شيء.

ـ بيديك؟

ـ ليس بهما وحدهما.

ـ بأي شيء آخر؟

ـ بلساني. بأسناني.

ـ وهل أعجبتكَ؟

ـ أجل.

ـ ولم تسمح لك بذلك في تلك الليلة الثانية؟

ـ لم تسمح لي إلا بعد أن أخبرتها بما جرى خلال نهاري.

ـ وكيف كان ذلك النهار؟

ـ «سوزانا»، «سوزانا». لم تتبدلي قطُّ. إنكِ لجوجة على الدوام. من الظلم أن أروي لكِ ذلك من جديد، أن أضطر إلى أن أروي لكِ كل ما عشناه. هذا أشبه... هذا أشبه بأن الزوجة التي أمضى أحدنا معها خمسة وعشرين عامًا قد أصيبت في حادث وفقدت الذاكرة و...

ـ هذا يعني أنه إذا ما تعرضت المرأة التي تحبها لحادث، فسوف تهجرها.

ـ لم أقل هذا.

ـ إذا لم تكن تعرف كيف تعاملني، ما كان عليك أن تأتي بي إلى باريس.

ـ أنتِ لا تفهمينني.

ـ هذا ما يقوله الرجال كلما امتنعت امرأة عن إيلائهم الاهتمام.

ـ يؤلمني أن تكلميني بهذه النبرة.

ـ وهل كنت تتأسف كثيرًا معها أيضًا، وكنت تعاني ذاتيًّا بهذه الطريقة؟

ـ مطلقًا.

ـ لماذا تفعل ذلك معي إذن، ما دمت تقول إننا، أنا وهي، الشخص نفسه؟ أترغب في أن تفهم؟

ـ أجل.

ـ ابذل جهدًا إذن.

ـ أهكذا تعاملين أولئك الأطفال الذين في الثانية عشرة الذين تعملين معهم؟

ـ أولئك الأطفال ناضجون أكثر من أن أعاملهم بهذه الطريقة.

ـ لا أريد مواصلة الحديث في هذا الشأن. من الأفضل أن تخبريني إن كنتِ تشعرين بالحر. أسألكِ هذا السؤال لأن هنالك مروحة في خزانة الملابس. لهذا السبب اخترتُ هذا الفندق بالذات. فالفنادق الحديثة وحدها تضع في كل غرفة...

ـ أشكرك لأنكَ فكرت في راحتي عند اختيارك الفندق. ولكنك كنت تحدثني عن نصائحها الأولى... وإذا كنت لا تريدني أن أقطع الاتصال...

ـ حسنٌ. قالت لي «سوزانا» إنني أخبئ لها شيئًا، ثم مرت بيدها على شعري، كما لو أنها أمي، أكثر من كونها...

ـ وهل كانت أمك على قيد الحياة؟

ـ ماتت حين كنتُ في الثالثة من عمري.

ـ وهكذا جاءت هذه المرأة لتكون بديلًا لأمك؟

ـ كل امرأة هي بعض من أمٍّ لرجُلها. ولكننا لا نخبر الأم بما نخبر به الحبيبة. وما طلبته هي مني ألا أنكر عليها أبدًا، أبدًا، أحزاني، وأنها موجودة لهذا السبب: للتخفيف من أحزاني.

ـ وأنت؟

ـ انتبهتُ إلى أن فمكِ ليس للتقبيل وحسب يا «سوزانا»، وأنه للتحدث إليَّ أيضًا. وأن أذنيكِ ليستا لأعضعضهما فقط، وإنما يمكن لهما سماع أسراري. كان هذا هو الدرس الأول الذي تعلمته منكِ.

ـ لقد بدأت أشعر بالتعاطف مع «سوزاناك». وماذا كان سرك؟

ـ لقد أخبرتُكِ به. فقد اضطر أخي الأكبر إلى ترك المدرسة.

ـ وهل يمكنك الآن أن تخبرني بالسبب؟

ـ اعتقلوه مع أبي. في ليلة عيد ميلادي. وفي اليوم التالي، حين أعادوا أبي...

ـ ماذا جرى لأخيك؟

ـ أجبروه على الانضمام إلى الجيش.

ـ وهل كنتم ضد الحرب؟

ـ أبي وأخي، أجل. أما أنا فكنت أعرف القليل عن تلك الأمور. أنتِ من رحتِ تعلمينني.

ـ وماذا عن أخيك؟

ـ مات في معركة بعد سنتين من ذلك.

ـ متأسفة. في أسرتي...

ـ أعرفُ.

ـ خسارة حرب أمر رهيب.

ـ بقدر ما هو رهيب كسبها تقريبًا.

ظل كلاهما صامتًا لبعض الوقت. ومن الشارع سُمع، فجأة، صخب أصوات صارخة، وأبعد منها الحمائم والنواقيس، وصوت فتى يبيع الصحف، وصوتٌ فرنسي آخر منفعل ومتعجل.

ـ وفي اليوم التالي أجبركَ أبوك على الذهاب إلى المدرسة على أي حال؟

ـ قال لي إذا كنت لا أريد الذهاب، فلستُ مضطرًّا إلى الذهاب، ولكنها هي...

ـ «سوزانا»؟

ـ قالت لي في الليلة الأولى إنني سأواجه مشاكل في اليوم التالي، ولكن من الضروري أن أذهب إلى المدرسة، وإن أشياء رهيبة كثيرة ستحدث لي في الحياة، ولن يفيدني الهروب منها. ولكنني حين تبادلتُ الحديث معها في الليلة التالية، كنتُ خائفًا. فبلطجية المدرسة جعلوا حياتي مستحيلة. كانوا يعرفون أن أخي مناهض للحرب، وأجبروني على الاعتراف بأنه هو وأبي شخصان جبانان وخائنان. وانضم إليهما صديقاي المفضلان. وقد آلمتني هذه الخيانة أكثر من...

ـ ربما كانت هذه التجربة مفيدة، كي تأخذ بالاعتياد على البلاد التي تنتظرنا.

ـ كان من الرهيب اكتشاف أن أحدهم يبتسم لك اليوم وينكرك

في اليوم التالي. أتذكر أحد أصدقائي يصرخ بي، بينما هو يضربني: «لأنك جبان!».

ـ أأزعجك أنهم يدعونك جبانًا؟

ـ أجل، بالطبع.

ـ هذا أحد الأمور التي لا يمكن لنا حسمها: كيف سيدعونا الآخرون. نحن نعرف كيف سندعو أنفسنا وحسب.

ـ «سوزانا»... هذا هو بالضبط ما قلتِه لي آنذاك، كلمة كلمة تقريبًا. كيف يمكنكِ مواصلة الإنكار أنكِ وهي الشخص نفسه؟

ـ وماذا قالت لك أيضًا؟

ـ كنا في حجرة فسيحة جدًا، وكانت هي تفتح الشبابيك الصغيرة واحدًا بعد الآخر، وتسمح بدخول ضوء برتقالي، ساطع. وبينما هي تجعلني أشرب الضياء، كانت تقول لي: «أفضل لحظات الحياة هي تلك التي لا ندري فيها ما يجب علينا عمله، لأننا عندئذ فقط، يا صغيري، نكتشف قوتنا الداخلية، ميلنا الحقيقي».

ـ ميلك، إيه؟ من المؤكد أنها نصحتك في تلك الليلة بالذات أن تتحول إلى مُزَيِّف.

ـ لا. حدث ذلك في الليلة التالية، وكانت هي نفسها أيضًا من نبهتني، بعد سنتين من ذلك. إلى أنني صرت جاهزًا لنشاطات أكثر تعقيدًا، وأوعزت إليَّ البدء، أولًا، بتحرير رسائل اعتذار، وبعد ذلك، خلال السنة الأخيرة من الحرب، تقارير طبية زائفة، كي يتمكن بعض زملاء المدرسة من الإفلات من التجنيد.

ـ وعندما انتهت الحرب.

ـ خرجتُ من المدرسة وقررت التسجيل في الجامعة.

ـ وهل فعلتَ ذلك بنصيحة من «سوزاناك»؟

ـ لستِ بحاجة لأن تتخذي هذه النبرة الساخرة. كنا نتحدث عن كل شيء، أجل. ومع من سواها يمكنني فعل ذلك؟ وقد كانت على حق. كما لو أنها تعرف مواهبي أكثر مما أعرفها أنا نفسي.

ـ وأنت، ما الذي عرفتَه عنها؟

ـ لا شيء. في كل مرة حاولت التحرِّي فيها عن شيء، كانت تضع يدها على شفتيها كي أصمت. لم أتمكن في تلك الليالي الأولى ولا في السنوات التي تلت من التوصل إلى أن أحصل منها بصورة مباشرة على كلمة واحدة عنها. كثير من الاستنتاجات، والتلميحات، والتفضيلات، أشياء من هذا القبيل. ولكن بلا أي معلومة مؤكدة. «ستعرف كل شيء عندما نلتقي بجسدك وجسدي في العالم الواقعي. دعني أفاجئك يا صغيري».

ـ أكانت تقول لك «يا صغيري»؟

ـ كنتُ في الثانية عشرة وهي في العشرين.

ـ وهكذا إذن، حين بدأ «مارتن» بالتحدث إليكَ عني، فوجئتَ بعض الشيء. أليس كذلك؟

ـ لا. كل شيء كان يتطابق.

ـ بما في ذلك مهنتي؟

ـ بدا لي أشبه بإشارة إعجازية أن تكون المرأة التي حلمتُ بها وأنا في الثانية عشرة، تتولى تعليم صِبية في هذه السن نفسها كيف يصورون أحلامهم. عندما أخبرني «مارتن» بذلك، فكرتُ في أن

دليلًا حاسمًا يشير، بصورة لاشعورية، إلى أنك تعملين على تهيئة هذا اللقاء معي.

ـ بصراحة، يبدو لي الأمر أقرب إلى مصادفة مريبة.

ـ ماذا تعنين؟

ـ يبدو لي أكثر تصنعًا منك، لدى معرفتك باهتمامي بالتصوير وبعملي مع أطفال في الثانية عشرة، اصطنعت هذه القصة عن أنك أنت نفسك، حين كنتَ في الثانية عشرة...

ـ ما الذي يمكنني قوله كي أقنعكِ؟

ـ يمكنك البدء بالتوضيح لي كيف كانت «سوزاناك»؟

ـ انظري إلى نفسك في المرآة.

ـ المرأة التي رأيتها في تلك الصورة مع «مارتن»، أكانت هي المرأة نفسها التي حلمتَ بها وأنت في الثانية عشرة من العمر؟

ـ هي نفسها، الشعر المتهدل بالطريقة نفسها على جانبي الوجه، الشفتان نفساهما، تكور الردفين نفسه، بريق العينين، الأناقة الساهية نفسها من أجل عرض الملابس.

ـ وخلال هذه السنوات كلها، لم تتبدل هذه المرأة جسديًا في أحلامك؟

ـ كنت أكبر، وهي لا تكبر. كان هذا شرطًا فرضته كي تزورني.

ـ أكنت تتحكم بأحلامك إلى هذا الحد؟

ـ لم أكن أتحكم في شيء. كنت نائمًا. كانت هي من تقرر كل شيء.

ـ وكنت تنصاع لها؟

ـ كنت طفلًا في الثانية عشرة، متوحدًا مثل بئر. ووجدت نفسي أخيرًا مع من هي موجودة لي وحدي حصريًا، من هي منبثقة من العدم، وتأتي لحل مشاكلي وليس لتحملني مسؤولية مشاكلها. فكيف لا أنصاع لها في كل شيء؟

ـ امرأة أحلام يقظة، مكرسة بالكامل للعناية بك، وتُعد العدة للحظة التي ستلتقي بها في الواقع... هذا صحيح: يجب أن تكون مجنونًا لتصدها. الرجال سريعو العطب جدًا.

ـ هذا بالضبط ما كانت تقوله «سوزانا»: «جميعكم سريعو العطب. وأنت أكثر من الجميع يا صغيري، لأنك ستقضي حياتك وأنت تمتص آلام الآخرين». وأدركتُ كذلك أنني لم أجد حتى هذه اللحظة أحدًا يهتم بأحزاني.

ـ وماذا عن أبيك؟

ـ ظل أبي مغمومًا بعد موت أمي، وتحول إلى ميت في الحياة حين أخذوا أخي وحين علمنا أنه قد مات في... لقد حدث لأبي أسوأ ما يمكن أن يحدث لرجل: الوقوع في حب ألمه بالذات.

ـ لماذا تقول إن هذا هو الأسوأ؟

ـ لأنه يبدأ بعدم وجود متسع في القلب لألم أي شخص آخر. أول ذكرى أحتفظ بها في ذاكرتي هي لأبي يتحدث إليَّ. يحدثني عن أمور لم أكن أفهمها: عن أمي، وعن كم هي بعيدة اليوتوبيا التي حلم بها في شبابه، وعن قسوة العالم المتزايدة. وباستماعي إليه فقط كنت أخفف من كآبته.

ـ لقد كان أبوكَ إذن هو من حولك إلى منديل للدموع؟

ـ هذا ما كنت سأفكر فيه لو لم تقنعني «سوزانا» بخطورة تحميل

آبائنا جريرة ما انتهينا إلى التحول إليه. لقد احتمى أبي لديَّ في تصور وحيد فطري فقط، غريب وسابق لحزنه. سألتني «سوزانا»: «ألأن هذه الصورة هي الأولى التي تحتفظ بها له؟». ثم قالت لي: «عُدْ أكثر فأكثر إلى الداخل، دع وراءك هذه اللحظة مع أبيك. انفتح حتى تصل إلى لحظة ولادتك، وانظر إلى نفسك». وما رأيته كان صدعًا في ذلك الطفل حديث الولادة، شيئًا أشبه بشقٍّ في منتصف كياني. إنه جرح غير مرئي، لم يره أحد حتى تلك اللحظة، ولا يمكن لأحد بالتالي أن يشفيه. «من هناك دخل إليكَ وما زال يدخل ألم الآخرين يا صغيري. ولكن لا، لا تغلقه، لا تتجاهله، أنا سأريك إياه الآن. سأساعدك على اكتشاف ما نفع هذا الشق».

ـ وما هو نفعه؟

ـ كي أتواصل مع ألم العالم الأكبر. ألا تتذكرين؟ كنتِ أنتِ من فتحتِ عيني، من طلبتِ مني أن أخرج لأجوب شوارع مدينتي كي أكتشف أن شقي ذاك هو جزء من شرخ أكثر اتساعًا وعمقًا بكثير. الفتية الذين يعذبونني في المدرسة كانوا سكان عالم يعذب آخرين كثيرين وبأسلحة أشد فتكًا وقسوة. هذا ما قلتِه لي حين أخبرتُكِ بأن زملائي قد ضربوني، وأنني رفضت أن أقول إن أخي جبان. كنتُ أريد أن أخفي ما حدث لي، كي لا أقوض مباركة رفقتك لي. ولكن عن كل ضربة من تلك الضربات النهارية كان هنالك ردٌّ ليلي. ما زلت أشعر بشفتيك على بشرة وجهي، وصوتك يقول لي: «من الجيد أن تناضل من أجل ما تؤمن به»، وقبلة. «ولكن ما زالت أمامك سنوات طويلة من النضال، وعليك أن تعرف كيف تعتني بنفسك من أجل المستقبل»، وقبلة أخرى. «لأن أزمنة رهيبة تقترب،

دكتاتوريات ستستخدم أسلحة وتقنيات لم تستخدمها أي دكتاتورية من قبل»، وقبلة جديدة. «وهنالك لحظات في التاريخ يجب الدفاع فيها عن الكرامة ولحظات أخرى يجب حماية النفس فيها وخداع المتجبرين»، وكان هنالك تبدل في الصوت عندما قلتِ لي: «أريدك كاملًا عندما تجدني، ألا ينقص شيء من هذا الجسد الذي يروق لي كثيرًا». ونزلتْ يدُكِ على جسدي إلى المنطقة الأكثر... أتسمعينني يا «بربارا»؟

ـ أجل.

ـ ولكنكِ كنت تفكرين في أمر آخر.

ـ كنتُ أفكر في الافتقاد الذي تسببه لك هذه المرأة. كنت أفكر في أنك مستعد لعمل أي شيء من أجلها.

ـ ليس أي شيء.

ـ أي شيء.

ـ أتعذرينني لحظة؟

تنتظر هي. لقد خفت حدة الضجة في الشارع، لم يعد يُسمع سوى الصوت المتوتر والحاد للطفل الذي يبيع الصحف، ربما هو صبي في الثانية عشرة، مثل أولئك الذين تركتهم هي في برلين.

ـ «بربارا»؟

ـ نعم.

ـ عليَّ أن أترككِ لبضع دقائق.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء. هنالك أمر يجب عليَّ إنجازه.

ـ هل ستعاود الاتصال؟

ـ لقد رميتِ في وجهي للتو قولكِ إنني مستعد لعمل أي شيء من أجلكِ، أتتذكرين؟

يصمت خط الهاتف وتكتشف هي مجددًا أنها تمسك الهاتف بإحدى يديها وتداعب آلة التصوير باليد الأخرى، وتستمع من دون أن تدري إلى الضجة الصاعدة من الشارع، وتسمع حتى حر سبتمبر في هذه المدينة الغريبة بصورة رهيبة.

(لماذا تأخرتُ طويلًا في معرفة من أين أتى «ليون» و«بربارا»؟

لماذا لم أستطع أن أكون مثل ذلك الرجل الذي في الظلال، وعرف منذ البداية جنسية الاثنين. ذلك الرجل الذي استخدم معرفته للتوصل إلى تفوق آخر في هذا السباق الذي يجهل أنه يدور بيني وبينه، بينما هو يتأهب للتدخل بكل وقاحة في حياتيهما.

أمن الممكن تحميل «ليون» و«بربارا» الذنب بكونهما محافظين جدًا في تجنبهما، على هذا النحو، الكشف عن جنسيتهما، ربما لأنهما يخشيان من احتمال أن يكون هنالك أحدٌ، مثل ذلك الرجل، يستمع إليهما، أحد يمكنه استخدام هذه المعلومة ضدهما؟ أم إنهما حاذرا في عدم ذكر اسم بلدهما لإحساسهما بالخجل، وشعورهما بالعار؟ مهما يكن الأمر، فقد كان حذرهما بلا جدوى. انتهى بهما الأمر إلى تجميد الشخص الوحيد الذي يحاول التحري عن بلدهما الأصلي كي يساعدهما.

كثيرٌ من أهالي هذا العصر مروا بباريس محاولين التحرر من دكتاتور أو حكومة مستبدة. كثيرٌ منهم تآمروا في الشوارع، وفي العليّات، وفي مقاهي باريس. نساء كثيرات جئن لزيارة أزواجهن المنكوبين والمنفيين، كثيرٌ منهن لم يرجعن قطّ، وأخريات كثيرات رجعن كي يقتلوهن. أجانب كثيرون تعرضوا للمراقبة، أُخضعوا من الظلال لمراقبة رجل يعرف جيدًا من أين هم آتون.

أما أنا، في المقابل، فرحت أجرب جنسيات مختلفة لـ«ليون» و«بربارا»، مثل أم تجرب ملابس لأطفالها. يكفي تغيير نبرة النطق، تحوير هذا المقطع الصوتي أو ذاك، حتى يصبح الناس أفريقيين جنوبيين أو فيتناميين، نيجيريين أو مجَريين، فلسطينيين أو يهودًا.

ولكنني أتفادى السبب الحقيقي لعماي: ما كنت أرغب فيه بجشع هو أن يكون «ليون» و«بربارا» أمريكيين لاتينيين.

وقد توصلت خلال بعض الوقت إلى إقناع نفسي بأنهما كذلك. قلت لنفسي إن شبانًا كثيرين قد مروا من باريس خلال عقد السبعينيات في طريقهم إلى بلدانٍ أخرى لتلقي تدريب سري. بل إن تسمية شاعرية أُطلقت عليهم: «أسماك السلمون». إنها طريقة لتمييزهم عن أولئك المنفيين الذين لا يستطيعون الرجوع إلى بلادهم، ربما هي طريقة لتذكيرهم بالأنهار الصافية والعكرة، بالشلالات، بالوطن، كي

لا ينسوا أنه عليهم العودة إلى أصولهم ليمنحوا ميلادًا، مثل أسماك السلمون، للحياة الجديدة، لدورة جديدة للحياة في بلاد مثل بلدي البعيد جدًّا عن أوروبا، البعيد جدًّا عن الغرفة التي أكتب فيها الآن هذه الكلمات، ذلك البلد المنسي في الجانب الآخر من العالم. بلد لم يعد يشد اهتمام أحد كما يبدو، ذو ماضٍ لا يريد أحد أن يتذكره.

ولهذا، مريضًا بالحنين، أردتُ الاقتراب من «ليون»، وجعله مألوفًا. تصرفتُ كواحد من أولئك العاشقين حين يعود إلى قريته عبر الجبال، ينظر نحو الوادي، ويرى حبيبته، ويناديها. وبينما هي تقترب، يرفض بحذر أن يدقق في الملامح الصغيرة التي لا تتطابق. ملمح من خصلة شعر متفلتة تتهدل على الكتفين لا مكان لها في الذاكرة، يدين كبيرتين قليلًا. بينما هي تحاول ضبط أي تفصيل متبدل، وتعمل كما لو أن التغيرات غير موجودة، تريد أن تكون هي من تسير نحوه، من تجد نفسها ممتلئة بالحياة بين ذراعيه. إلى أن يخرج المسافر من خسوف حواسه ويدقق بوضوح وحشي في تلك المجهولة التي على بُعد خطوات منه: يجد هناك امرأة غريبة بالكامل، لم يرها قطُّ من قبل. وعندئذ يبدأ الغمّ الحقيقي: أين هي بلادك؟ أين هي المرأة التي تحبها؟ وهل وُجدتْ يومًا مثلما هي موجودة في الذاكرة؟

ولكن هذه قصة أخرى.

هذه قصة «ليون»، وربما هي قصة «بربارا».

ليست ما حدث لي.

أنا محكوم عليَّ بأن أستمع، وأن أحاول فهم ما يقوله بصمت هذان الألمانيان ـ وكان يمكن لهما أن يكونا تشيليين أو بولونيين أو جنوب أفريقيين ـ في مدينة لم يولدا فيها).

ـ «بربارا»! لماذا تأخرتِ كثيرًا في الرد؟

ـ كنت أنظر إلى صور أطفالي التي أحضرتها معي.

ـ هل يهمك أمر أولئك الأطفال كثيرًا؟

ـ إنهم يرون كل شيء يا «ليون». يرون كل ما يجري اليوم في مدينتـ... أنتَ أيضًا من برلين، أليس كذلك؟ مع أنهم يرون بادئ ذي بدء، وبصورة أساسية، ما سيأتي.

ـ وما الذي سيأتي، حسب رؤية أطفالك؟

ـ لا توجد كلمات لوصف الخوف والقرف والحقد الذي اكتشفه أطفالي في عيون الكبار. ستشعر بالخوف إذا ما رأيتَ هذه الصور.

ـ لستُ بحاجة لرؤية هذه الصور كي أشعر بالخوف. ما أحتاج إليه هو أن يمنحوني أملًا. هل هنالك أمل في إحدى هذه الصور؟

ـ شيء قليل. ضوء باهت.

ـ يسعدني هذا.

ـ يبدو أنك كنت حزينًا يا «ليون». خلال هذه الدقائق التي غبت فيها، هل حدث شيء...؟

ـ لا شيء يدعو للقلق. لا شيء مما لم يستشفه أطفالك.

ـ لستُ أفهم.

ـ سوف تفهمين. لسوء الحظ أنك ستفهمين ذلك قريبًا جدًّا.

تنتظر منه أن يواصل، ولكنه لا يقول المزيد. فتسأله عندئذ:

ـ هل هنالك شيء نصـ...؟ في تلك الليلة التي تعرفت فيها إلى «مارتن». ما الذي نصحتك به «سوزاناك» في الليلة التي تعرفت فيها إلى «مارتن»، وعلمتَ بأمري؟

ـ لا شيء.

ـ كيف؟

ـ في تلك الليلة، لأول مرة منذ عرفتها، لأول مرة منذ خمسة وعشرين عامًا، لم أحلم بـ«سوزانا».

ـ بماذا حلمت؟

ـ لا شيء.

ـ ربما حلمت بها ولم...

ـ لا.

ـ وماذا فعلت عند الاستيقاظ؟

ـ أُفضّل عدم التكلم في هذا الأمر.

ـ ولكنك تحدثت فيه معها؟

ـ حسنٌ. إذا كان هذا ما تريدينه. أقول إنني مارست الحب مع «كلاوديا». بشراسة، بيأس.

ـ وهي؟

ـ كانت نائمة في أول الأمر، وفوجئتْ. هذا النوع من الهجوم ليس بالأمر التقليدي بيننا. ولا ممارسة الحب في الصباح. ولا ممارسته من دون أن يكون كلانا موافقًا ونكون قد هيأنا له الميدان،

إذا صح هذا القول. على أي حال، وافقتْ في البدء بما أسميه أنا طيبة خاطر، وبعينين مغمضتين. ولكن بدا على الفور أنها انتبهت إلى أنني لم أكن أمارس الحب معها. لم أكن قادرًا. كان ذلك مستحيلًا. وفجأة رأيت نفسي في السرير كما لو أنني في مكان آخر من الحجرة، أنظر بطريقة إباحية تقريبًا، من دون أي لذة، وإنما بيأس وحزن فقط. كنت أشعر بأنني ضائع، ضائع مثلما كنت قبل أن أكمل الثانية عشرة من عمري، في هذا العالم من دونكِ. ولم أستطع العثور على المخرج. إلى أن قالت «كلاوديا»: «إنك تؤلمني». ولأنني لم أعرها انتباهًا أبعدتني بدفعي جانبًا ونهضتْ من السرير تاركةً إياي ألهث وحيدًا بين الملاءات.

ـ وماذا حدث عندئذ؟ لأنه كان لديك موعد من دون شك مع «مارتن» في ذلك اليوم.

ـ لا. لم أنهض من الفراش طيلة النهار. ظللت أنظر إلى... أنتِ تعرفين.

ـ ما الذي أعرفه؟

ـ شعرت برغبة في بتر... هذا الشيء.

ـ هذا الشيء!

ـ هذا الشيء.

ـ لماذا لا تسميه باسمه؟

ـ لأنني أشعر بالخجل.

ـ بعد انقضاء خمسة وعشرين عامًا؟ كيف كنت تسميه في أحلامك؟

ـ إذا كنتِ لا تتذكرين ذلك فإنني أُفضل ألا أخبركِ.

ـ كيف كانت تسميه «سوزانا»؟

ـ أخبريني أنتِ.

ـ لا.

ـ أترين؟ كان عليَّ أن أقطعه.

ـ ولكنك لم تفعل.

ـ نعم.

ـ لأنك ظللت تحتفظ بالرغبة فيَّ ذات يوم.

ـ أجل.

ـ كنت وفيًّا لـ«كلاوديا».

ـ لكلتيكما.

ـ وماذا عن «أنطوانيت»؟

ـ صحيح. ولكن ذلك لا يُحسب. فعلته من أجل الحصول على مساعدة لكِ.

ـ وما التفسير الذي قدمته لـ«كلاوديا» باستخدامك الواقي؟

ـ قلتُ لها الحقيقة: لا أريد إنجاب أبناء.

ـ حسنٌ، من المريح معرفة أن هذا التفسير على الأقل ليس له أي علاقة بي.

ـ سيُتعبكِ أن أخبركِ بأنه كان للأمر علاقة بكِ. هنالك شيء لم أعترف به لأحد قطُّ...

ـ ولا حتى لـ«سوزانا»؟

ـ خصوصًا لها.

ـ ولكنك تستطيع إخباري أنا به؟

ـ أجل، الآن وقد ظهرتِ. ما كنت أخشاه هو أن تحبل «كلاوديا» بطفلة، وأن يكون لها...

ـ يكون لها ماذا؟

ـ وجهكِ.

ـ أكنت تخشى أن تتجسد «سوزانا» في ابنتك بالذات؟

ـ كان ذلك أسوأ كوابيسي.

ـ كانت لديك كوابيس إذن، فضلًا عن الأحلام.

ـ كثيرة. مع أنه في أزمنة مثل هذه، يكفي الخروج إلى الشارع، أليس صحيحًا؟

ـ وهل كنت تستخدم الواقي في أحلامك أيضًا؟

ـ لقد أخبرتكِ بأنني لم أكن أمارس الحب في الأحلام.

ـ وهل كانت «كلاوديا» هي أول امرأة مارست معها الحب؟

ـ أجل. في اليوم الذي أكملت فيه العشرين من عمري، يوم صرت أخيرًا في مثل عمرها، وقد قالت لي «سوزانا»: «قريبًا ستصبح أكبر مني سنًّا. لقد حان الوقت لتضاجع فيه امرأة يا صغيري. ولكن كن حذرًا في اختيارها، لأنك بفعل خوفك من التسبب في أذى للناس، قد ينتهي بك الأمر إلى الزواج منها».

ـ ألم تكن «سوزاناك» تشعر بالغيرة؟

ـ ما كنتُ لأتورط مع إحداهن من دون موافقتها المسبقة. فلماذا تشعر بالغيرة؟

ـ يبدو لي غريبًا بعض الشيء أن تحثك حبيبة على مضاجعة امرأة أخرى.

ـ لو لم تفعل ذلك لما اقتربتُ أبدًا من امرأة أخرى. وخصوصًا من «كلاوديا». كان الأمر يُخجلني. وكان على «سوزانا» أن تقنعني بأن... ولكنني لا أرى مسوغًا لاهتمامك بهذا الأمر.

ـ أنت تعرف كثيرًا عني، ويبدو لي من العدل أن أعرف شيئًا عنك.

ـ وكيف تعرفين إن كان ما ستعرِفينه صحيحًا؟

ـ يكفي أن يكون مسليًا...

ـ سأختلق لكِ شيئًا إذن. فلنرَ. كنت في سنتي الجامعية الثانية. وكنا نحاول إعادة إحياء الجريدة الطلابية. «الفجر»، هكذا كانت تسمى. وقد كانت قبل مجيئنا نشرة جدية جدًّا ومملة، لا تتضمن سوى دعوات إلى الانتفاضة، وأناشيد الطبقة العاملة، وابتهال للمستقبل. وتوصلنا مع جماعة من الرفاق إلى أنه لا بد لـ«الفجر» من تبني لغة جديدة وجذابة، مع مشاركة من الناس، ومقابلات زائفة وساخرة، ورسوم كاريكاتير مضحكة مع زاوية يمكن تسميتها «النمام»، تُلتقط فيها أشد الإشاعات غرابة. جريدة تكون مثل جادة تغص بالمقاهي والمناقشات حتى الفجر بكل معنى الكلمة.

ـ وهل كان هذا ثمرة تدخل «سوزانا» أيضًا؟

ـ كنتُ أستشيرها في كل شيء، مثلما قلتُ لكِ.

ـ وما الدور الذي خصتْكَ به في الجريدة؟

ـ اقترحتْ عليَّ أن أفتتح في الجريدة عيادة عاطفية للطلاب، على أن أتمكن من الحفاظ على سرية من يحررها، وأن أفعل ذلك باسم مستعار.

ـ لماذا؟

ـ أرادت لي أن أظل أبعد ما يمكن عن الأضواء العامة، فقد كانت ترى على الدوام أنني في خطر.

ـ وما الخطر الذي كان يمكن أن تتعرض له في تلك الحقبة؟

ـ تنبأتِ لي بأن مستقبلًا مظلمًا يقترب. «الديمقراطية لن تدوم، جمهورية «فايمار» لن تدوم».

ـ أجد صعوبة في أن أصدق أن يكون هناك من قال لك هذا في أحلامك.

ـ ليت أحدًا قال ذلك لجميع الألمان في كل ليلة، كلما ناموا.

ـ وما الاسم المستعار الذي اختارته لك؟

ـ «دون جيوفاني».

ـ «دون جيوفاني»؟

ـ أعجبنا نحن الاثنين الاسم. فأنا البعيد عن أن أكون «دونجوانًا»، كنتُ فتى بكرًا تسبب له النساء الرعب.

ـ وكيف كنت تفكر في تقديم النصائح إذن؟

ـ أنا كنتُ... قد لا يعجبك هذا. كنتُ قد تحولت إلى نوع من الموسوعة الجوالة في شؤون الحياة الجنسية البشرية. بسبب الأمور التي... بسبب الأمور التي علمَتني إياها «سوزانا».

ـ نظريًا.

ـ وكانت تقدم لي أدلة إثبات.

ـ أكانت «سوزاناك» واسعة التجربة؟

ـ لم أسألها قطُّ. أعتقد أن نعم. على كل حال، كان يمكن لكل من يقرأ أعمدتي أن يفترض أن كاتب تلك السطور قد استباح الأَسِرَّة أكثر من أي شخص آخر في العالم. مقالتي الأولى كانت تناقض

بصورة تامة ومطلقة طريقتي المحافظة وأحادية الزواج في الحياة. لقد شططتُ، لجأتُ إلى أسلوب وقح ومتغطرس للوعظ بالحرية الجنسية كهدف كوني: يجب أن يكون كل شيء مباحًا، ولا تكون هنالك حدود للتجريب. لا يمكن أن يوجد وفاء آخر سوى للذة، يجب تحطيم الكوابح جميعها بين الأزواج كطريقة لاستباق تحطيم الأغلال الاجتماعية الأخرى التي تستعبدنا.

ـ أوف، إنه بيان قائم بذاته! وماذا قالت «سوزانا» حين أخبرتها بالصفحات التي كتبتَها؟

ـ كانت موافقة، لا سيما أنه لا يمكن لأحد في هذه الحالة أن يتعرف إلى «دون جيوفاني» الصفيق. ولكنها أخطأت في هذا المجال، ربما للمرة الأولى والوحيدة، لأن «كلاوديا» التي كانت تدرس المحاماة قرأت آرائي، وبدت لها مثيرة للازدراء ووقحة ومضادة للثورة إلى حدٍّ أقسمت معه ألا تستريح قبل أن تتمكن من أن تشتم، وجهًا لوجه، «دون جيوفاني» السفيه. وسرعان ما تمكنتْ، بالفعل، من تحري سر هوية كاتب تلك المقالات المقيت. حاصرتني عند ظهر أحد الأيام في مطعم صغير قبالة الجامعة. كنت على وشك البدء في تناول غدائي عندما شعرتُ بأن هنالك من يراقبني. رفعتُ عيني وكانت «كلاوديا» هناك. كان في نظرتها تصلّبٌ لا يلين، جعلني أضع ملعقتي بحذر في طبق حسائي الذي يتصاعد منه البخار. ««دون جيوفاني» إذن، إيه؟». كانت هذه هي الكلمات الأولى التي سمعتُ «كلاوديا» تقولها في حياتي: أربع كلمات عدائية، بصوت ملاك. على الرغم من أنها كذّبت على الفور الصفة الملائكية، بانهيالها عليَّ، حتى من دون أن تتكرم بذكر اسمها قبل ذلك، بخطبة هذيانية

لاذعة تدربتْ عليها مذ قرأت مقالتي الأولى. هاجمت من يظنون أنفسهم «دون جيوفانيات» هذا العالم المثيرين للشفقة، بفحولتهم من الطراز القديم، وقالت إننا لن نبلغ عالم المستقبل من دون أن نكون نحن أنفسنا قبل ذلك أخلاقيين جدًّا، وهل هنالك نساء يتبعن نصائحي... ثم صمتتْ فجأة، في منتصف الجملة. قاستني من أعلى إلى أسفل، كما لو أنها تراني أول مرة. وعندئذ ضحكتْ. لم يكن سماع ضحكتها لطيفًا.

ـ لِمَ لا؟

ـ لأنها تبعث على الخوف، لأنها انحنت في اتجاهي فوق المنضدة فورًا. قرَّبت فمها من أذني، ففكرتُ في أن الكلمات لم تعد تتسع لحقدها عليَّ، وأنها على وشك أن تنتقل إلى الفعل: تلك الأسنان شديدة البياض ستمزق أذني في عضة واحدة بين لحظة وأخرى. ولكن لا. ما حدث عندئذ أنني عدتُ أسمع صوتها الدافئ والهامس، وكان ما قالته لي: «ما أنت إلا خدعة. أنا أعرف أنك مخادع، وأنك لم تضاجع أي امرأة قطُّ». وانتظرتْ هنيهة لترى أي تأثير خلفته تلك الكلمات فيَّ. ولأنني ظللتُ صامتًا... الحقيقة أنني، وأنا مشلول من الرعب بالحالة التي كنت عليها، لم أكن قادرًا إلا على تأمل كيف يعلو صدرها ويهبط هائجًا ونابضًا مع إيقاع تنفسها. لم أرغب في حياتي قطُّ أن تنقذني «سوزانا» مثلما رغبتُ آنذاك.

ـ ولكنها لم تنقذك.

ـ كنتِ في الثالثة من عمرك في ذلك الحين، فكيف ستعرفين؟

ـ ماذا حدث إذن؟

ـ غمست «كلاوديا» إصبعها في حسائي، رفعتهُ إلى فمها ثم

قالت، على سبيل الوداع: «هذا المكان مجرد براز. إذا أردت أن تعرف ما الأكل الجيد يا «دون جيوفاني»، تعالَ إلى بيتي، إن كنت تتجرأ على المجيء». وكتبت اسمها وعنوانها على عدد جريدة «الفجر» الذي كانت تحمله تحت إبطها. ثم استدارت، وبينما هي تبتعد، أتذكر أنني ظللت أنظر إليها، كما في غيبوبة، متحسرًا أكثر فأكثر على انصرافها. كنتُ أريدها أن ترجع فقط، وأن تجدد خطبتها اللاذعة، وأن تخلع مع كل شتيمة قطعة من ملابسها إلى أن تظل عارية تمامًا. أردتُ فقط... «ضاجعها»، هذا ما قالته لي «سوزانا» في تلك الليلة.

ـ حساسة «سوزاناك».

ـ كانت تسمي الأشياء بأسمائها على الدوام. «ضاجعها»، قالت لي في تلك الليلة، ثم أضافت: «وإذا بدا لك ذلك جيدًا، تزوجها». وحين سألتُها لماذا؟ أجابتني: «لأنك بحاجة لمن لا يمكنك خداعها، لمن تحبك مثلما أنت وليس لما تتظاهر بأنك عليه».

ـ وماذا فكرتَ أنت؟

ـ فكرتُ في أن «كلاوديا» تكرهني. ولكن «سوزانا» لم تولِ أدنى اهتمام لمخاوفي. وقالت لي: «المهم هو وجود العاطفة. ولو لم تكن تشتهيك لما دعتك إلى بيتها». أما أنا فكنت أرتاب في أن تلك الدعوة ما هي إلا إشارة تلميح ساخرة إلى الأمر الذي دعا «دون جيوفاني» إلى العشاء. ما خشيته أن تكون «كلاوديا» تخطط لتسميمي، على أمل أن أذهب إلى الجحيم.

ـ أراهن أنها أعدت لك عشاء استثنائيًّا.

ـ هذه الكلمات نفسها قلتِها لي في تلك الليلة: «ستُحضِّر لك عشاء متبلًا بالمنشطات كي تفقد كوابحك كلها». وهكذا بدأت تُنسج علاقة غريبة بين امرأة أحلامي والمرأة التي ستصير زوجتي.

ـ ولكن «كلاوديا» لم تعلم قطُّ بأمر وجود «سوزانا».

ـ لقد حذرتني «سوزانا» بوضوح مطلق: «إذا ما علمتْ هي بوجودي، فسوف ينتهي ما بيننا: لن أراك بعدها أبدًا».

ـ وأستنتج أن كل شيء جرى على ما يرام في العشاء مع «كلاوديا».

ـ على ما يرام بصورة رائعة.

ـ أأعجبتك ممارسة الحب معها؟

ـ أجل.

ـ وهي؟ ماذا شعرتَ تجاهها.

ـ أسى. لأنه لا يمكن لي أبدًا أن أروي لها الحقيقة كلها.

ـ ومنذ ذلك الحين، هل كانت رفيقة جيدة؟

ـ الأفضل.

ـ ألم تتذمر قطُّ من المنفى، من المصاعب التي...؟

ـ أبدًا.

ـ أتحبها أكثر من حبك لـ«سوزانا»؟

ـ أظن أن لا.

ـ تظن؟

ـ حتى الآن لم يكن هنالك مغزى لطرح هذا السؤال.

ـ والآن؟

ـ سنرى.

ـ ما الذي تنتظره مني؟

ـ ليست اللحظة مناسبة بعد للتحدث في هذا الأمر.

ـ أنا أرى أنها مناسبة. لديك خطط. هل تفكر في تقديمي إلى «كلاوديا»، وتتخيل أن نعيش ثلاثتنا معًا؟

ـ لا أفكر في أي شيء.

ـ أخبرني بأمر. في المرَّة الأولى مع «كلاوديا»، هل فكرتَ بـ...؟

ـ لم أفكر في أن «كلاوديا» هي «سوزانا»، إذا كان هذا ما تعنينه. لم تكن لديَّ تخيلات. ولكنكِ كنتِ حاضرة، إن كان يهمك معرفة هذا. حتى في أشد اللحظات زخمًا، لم أفقد بصورة تامة الإحساس بأنني أمارس حبًّا مستعارًا، بأن ذلك كله يحدث بينما أنا، في غضون ذلك، في انتظار شخصية أخرى.

ـ وتلك الشخصية هي أنا؟

ـ لكِ صوت، وملامح، وعمر تلك الشخصية.

ـ هنالك أمر تتركه جانبًا على ما أعتقد.

ـ بكل تأكيد.

ـ ربما يكون لديَّ أيضًا ما أقوله في هذا الشأن، وربما تكون لديَّ خطط من أجل...

ولكنها تقطع كلامها لأن أحدهم يطرق باب حجرتها في تلك اللحظة.

أما هو فيتبدل صوته:

ـ هل حدث شيء؟

تنتظر. ثم تسمع من جديد الطرق على الباب. فتقول في الحال، بصوت خافت:

ـ هنالك من يقرع الباب.

ـ لا تقلقي.

ـ وإذا كانوا من... أولئك الذين يبحثون عن «مارتن»؟

ـ هنالك من يبحثون عنه بالفعل. ولكنهم يظنون أن اسمه «هانز».

ـ مَن قتلوا «أنطوانيت».

ـ ليست لديهم معرفة بأمرك.

ـ كيف يمكنك أن تكون متأكدًا هكذا؟

ـ ما كان النازيون سيتركونك تخرجين من ألمانيا لو أنهم ارتابوا بأن لكِ علاقات سرية هنا.

ـ مَن الذي يقرع الباب إذن؟

ـ إنها وجبة غدائكِ.

ـ لم أطلب غداء.

ـ طلبته أنا. لا بد أنك جائعة.

تتردد هنيهة أخرى. فيقول لها:

ـ إنه طعامكِ المفضل. لستِ مضطرة لقول أي كلمة للنادل ولا أن توقّعي أي شيء. كل شيء مرتب. هيا.

وبالفعل، حين فتحت الباب وجدت نادلًا ومعه عربة صغيرة. للرجل ملامح جامدة لا تأثُّر فيها. ووراءه، في الممر، تتمكن من لمح ظل الخادمة التي كانت تتجسس عليها في الصباح. يدفع النادل العربة داخل الغرفة وينسحب من دون أن يرفع الأغطية عن أواني الطعام المغطاة. وعندما ترفع هي تلك الأغطية، بعد إغلاقها الباب،

تجد مرقًا مركزًا يتصاعد منه البخار، وسبخ شواء مع أرز، وسلطة طماطم وخيار مع صلصة قوامها الخل، وحلوى كعك التفاح ونصف زجاجة نبيذ أحمر إلى جانب إبريق ماء.

ـ إنه طعام كثير بالنسبة إليَّ يا «ليون».

ـ سيُحسِّن حالتك.

ـ وأنت، ألن تأكل؟

ـ إنني آكل مثل الأطعمة التي طلبتُها لكِ.

ـ أين أنت إذن؟

ـ قريب. ولكن هذا غير مهم. فلنأكل. حاذري من المرق، لا بد أنه ساخن جدًّا.

تنفخ هي على الملعقة قبل أن تُدخلها في فمها.

ـ أأعجبكِ؟

ـ لذيذ. كيف تعرف أنني...؟ هل «مارتن» هو مَن أخبرك؟

ـ أيفيد في شيء أن أقول لكِ إنني أعرف عنكِ من خلال عيشنا معًا على امتداد خمسة وعشرين عامًا من الأحلام أكثر بكثير مما عرفته في الأسبوع الذي أمضيته مع «مارتن» هنا في باريس؟

ـ وإذا قلتُ لك إنني قد بدأتُ أصدقك؟

ـ ستمنحينني سعادة كبيرة بمعرفة ذلك.

ـ وطمأنينة كبيرة أيضًا؟

ـ جميعنا بحاجة إلى الطمأنينة.

ـ لماذا لا تطمئنني إذن؟ لماذا لا تخبرني مرة واحدة وإلى الأبد بكل ما حدث لـ«مارتن»؟ ولماذا هو في خطر؟

ـ بعد تناول الطعام.

ـ هل ستأتي للقائي؟

ـ ليس بعد.

ـ ولكنك ستخبرني عن «مارتن»؟

ـ فلنأكل. من البديع عدم الاضطرار إلى الكلام. الإحساس بأن الطعام الذي يدخل بدنكِ هو الطعام نفسه الذي يدخل بدني. فلنأكل. في صمت.

(كنتُ موسوسًا بذلك الرجل الذي يتجسس على «ليون» و«بربارا»، فلم أنتبه إلى أن هنالك رجالًا آخرين، أصواتًا أخرى ـ ثلاثة، من أجل الدقة ـ يجب إيلاؤهم الاهتمام. «ليون» يعلم بوجودهم وقلقه هو ما نبهني إليهم أخيرًا وإلى خططهم.

لقد ظننتُ على الدوام أن التهديد ضد «مارتن» يأتي من ذلك الرجل الذي في الظلال، ذلك الرجل الذي أستنتجُ الآن أنه يلاحق «ليون» منذ وقت طويل في شوارع باريس.

ولكنني بدأت ألمح الآن نوعًا آخر من التهديد. أسمعه في أصوات هؤلاء الرجال الثلاثة الذين رأيتهم من خلال الزجاج الأسود الذي هو «ليون»، انطلاقًا من محادثة دارت بينهم هم الثلاثة، على انفراد، منذ أحد عشر يومًا، في حجرة مظلمة بباريس. من الممكن طبعًا أن يكون «ليون» مخطئًا، ويمكن أن يكون قد

أساء فهم تلك المحادثة أو أن يكون قد اختلقها ببساطة، مثلما تُختلق حكاية.

لا يمكن أن يروقني شيء أكثر من ذلك، ولكن هنالك ما يؤكد لي أن ما سأسمعه من خلال «ليون» لم يكن مختلقًا لسوء الحظ، لا منه ولا مني.

إنه منتصف النهار من يوم ٢٠ أغسطس ١٩٣٩.

أحد عشر يومًا بالضبط قبل دخول امرأة ألمانية إلى فندق في باريس وردِّها على مكالمة هاتفية من رجل تجهله. إنه يوم ٢٠ من أغسطس ١٩٣٩. ثلاثة رجال يجتمعون في غرفة مظلمة في جهة أخرى من باريس.

يقول أحدهم:

ـ شكرًا لمجيئكما.

الاثنان الآخران يدعوانه «ويلي». إنه الرجل الذي يعتبره «ليون» أفضل صديق له، الرجل الذي حالت إصابته بنزلة صدرية دون توليه مسؤولية «مارتن» يوم وصول هذا إلى باريس.

يقول الرجل الثاني الذي يدعى «أندريه»:

ـ فلنبدأ. («ليون» لا يعرفه شخصيًا ولكنه سمع عن مآثره في النضال ضد الفاشية، وعن سنواته في الألوية الأممية بإسبانيا دفاعًا عن الجمهورية. «أندريه» لا يعيش في باريس وقد جاء لمناقشة هذه المسألة فقط). لا يتوافر لي كثير من الوقت.

يقول «فولف»، الرجل الثالث، المسؤول عن العملية السرية في باريس، وبالتالي عن «ليون» و«ويلي»:

ـ فلندخل في الأعمال. «فولف». (منذ العاشرة من عمره، كان «فولف» قد بدأ العمل في مناجم الفحم، وفي السادسة عشرة فقد إحدى ذراعيه في انتفاضة ١٩١٩. في عام ١٩٢٧ قاد النضال الظافر من أجل يوم عمل من ثماني ساعات في المصانع الألمانية، وفي عام ١٩٣٥ تمكن من الهرب من أحد سجون «الجستابو» مع عشرين سجينًا آخرين. «ليون» يعرفه ويكنُّ له تقديرًا عظيمًا). منذ شهر تم اكتشاف رجلين يراقبان الشقة التي نستخدمها في شارع «كانيت». لا توجد أدلة على أنهما من عملاء «الجستابو»، ومن الممكن أنهما ينتميان إلى الشرطة الفرنسية. ولكننا قررنا، على كل حال، أن نخلي ذلك المكان. لقد أحسنَّا صنعًا، فبعد يومين اعتقلوا «فرانتز» وهو في طريقه إلى «دوسلدورف»، وبعد أربعة أيام اعتقلوا «يوهانس» في برلين. كلاهما كان قد أقام في شقة شارع «كانيت». المحصلة: هنالك مندس بيننا. وشكوكي، كما قلت سابقًا، تتجه نحو «هانز».

إنه يتكلم عن «مارتن»، فـ«مارتن» يُعرف باسم «هانز».

يسأله «أندريه»:

ـ لماذا؟

- لأن حالتَي الاعتقال وقعتا مباشرة بعد مرور «هانز» من باريس في طريقه إلى موسكو. وكذلك موت إحدى صِلات الوصل مع «ليون»، امرأة تدعى «أنطوانيت»، وكانت قد تلقت تهديدات من رجلين لهما المواصفات نفسها التي للاثنين اللذَين كانا يراقبان شارع «كانيت».

يسأله «أندريه»:

- ألهذا السبب أمرت بأن نسحب «هانز» من برنامج موسكو؟

- أجل.

- هل كان «هانز» يعرف هذه المرأة صلة وصل «ليون»؟

قال «فولف»:

- لم يكن يعرفها، على حد قول «ليون»، ولكنه يقر بأنه الوحيد الذي رافقه من بين الرجال الذين يتولى مسؤوليتهم، ولم يرافقه مرة واحدة وإنما عدة مرات، إلى مقهى عند ناصية بيت تلك المدعوة «أنطوانيت»، حيث كان ينتظر بينما «ليون» يصعد إلى شقة المرأة.

الآن يتكلم «ويلي». و«ويلي»، مثل «ليون»، كان صحفيًا في ألمانيا. ولكنه، خلافًا لـ«ليون»، واصل النشر في صحيفة سرية في برلين خلال سنوات «هتلر» الأولى في السلطة.

يقول «ويلي»:

ـ «فولف» يتهم «هانز»، لأن هنالك إشاعات تقول إن «هانز» كان ينتقد الاتحاد السوفييتي. بل وصل به الأمر إلى حد القول إن ما هو هناك ليس اشتراكية وإنما إرهاب. «ليون» أخبرنا بتلك الشائعات لأن من واجبه عمل ذلك، ولكنه أصر في مناسبات عديدة على أنه لا يعتقد أن لتلك الإشاعات أي أساس من الصحة.

يسأل «فولف»:

ـ لماذا اقترح «هانز» إذن أن نلغي برنامجنا التدريبي في الاتحاد السوفييتي؟

يجيب «ويلي»:

ـ لأنه يؤكد أن «ستالين» سيوقِّع، عاجلًا أو آجلًا، اتفاقًا مع «هتلر»، وهذا سيُعرِّض برنامجنا للخطر.

ـ هذا كلام سخيف. فـ«ستالين» هو أسوأ أعداء «هتلر».

بينما الرجال الثلاثة يتبادلون الحديث في تلك الحجرة، كان «ليون» يحاول أن يتكهن ما يقولونه، وما سيقررونه. وفي حجرات أخرى، أكثر اتساعًا وأفضل إضاءة، على امتداد أوروبا، كان رجال آخرون يتكلمون. يتكلم «هتلر»، يتكلم «ستالين»، يتكلم «فون ريبتروب»، يتكلم «تشامبرلين». و«ليون» يفكر

في أنه إذا تمكن من تخمين ما يقوله أولئك الرجال، فسيكون قادرًا على التحكم في مصيره، وكذلك في مصير المرأة التي يدعوها هو «سوزانا».

يحك «أندريه» رأسه. ثم يسأل:

ـ وماذا لو وقَّع «ستالين» ذلك الاتفاق؟

يقول «فولف»:

ـ سيكون على الحزب أن يؤيده. الاتفاق سيمنح السوفييت وقتًا للاستعداد. ولينزف، في أثناء ذلك، الفرنسيون والإنجليز الملعونون في القتال. فهم في نهاية المطاف من شجعوا «هتلر»، ومن سمحوا له بالتسلح.

يقول «ويلي»:

ـ سنكون نحن من سينزف.

يقول «فولف»:

ـ أجل، سوف ننزف إذا واصلنا حماية مندسين مثل «هانز». إذا واصلنا الدفاع عنه مثلك، باسم صداقتك مع «ليون».

يقول «أندريه»:

ـ يكفي (يملأ كأسًا بالماء، ولكنه لا يشرب سوى رشفة واحدة). المهم أن يصل «هانز» من موسكو خلال...

يقول «فولف»:

ـ اثني عشر يومًا.

ـ وأنت تقترح...؟
يبذل «ليون» جهدًا خاصًّا ليفهم ما يرد به «فولف».
ـ إعادته إلى ألمانيا. تعليق عضويته لستة أشهر. مراقبة إن كان «الجستابو» يتصل به.
ـ وإذا لم يتصل به؟
ـ نستعيده.
يسأل «ويلي»:
ـ وماذا لو اعتقلوه قبل ذلك؟
يقول «فولف»:
ـ هذا هو الخطر الذي يتعرض له كل من يرجع إلى ألمانيا. هنا في باريس يعرضنا جميعنا للخطر. وخصوصًا «ليون»، مهما كان سعي «ليون» للدفاع عنه.
يسأل «ويلي»:
ـ وماذا ترى أنت يا «أندريه»؟ ماذا يرى المستوى الأعلى؟
يقول «أندريه»:
ـ ما أراه أنا، أنه لا بد من اتخاذ قرار.
وفي هذه اللحظة الحاسمة تبدأ أصواتهم في التلاشي. وفجأة يصمت الرجال الثلاثة بالنسبة إليَّ. أتخيلهم يتبادلون النظرات كما لو أن لديهم كل ما في الدنيا من وقت بينما أصواتهم تضيع، لأن المرآة التي هي «ليون» تُظلِم: لم تعد تعكس كلمات أولئك الرجال.

لا جدوى من محاولة سماعهم من دون مساعدة «ليون». فإذا كان هو غير قادر، أو غير راغب في مواصلة تسجيل ما يقولونه، إذا كان يرفض نبش ما كان عليه قرارهم، فلا وجود لما يمكنني عمله.

لا شيء، اللهم إلا تساؤلي لماذا.

أيكون لأن «ليون» لا يمكنه أن يتسامح مع تلك الحال التي سيتحول إليها العالم بالنسبة إليه، منذ اللحظة التي يقرر أولئك الرجال ـ رفاقه في النضال من أجل الحرية، أكرم وأوفى أبناء جيله، أولئك الرجال الذين سيموتون واحدًا فواحدًا في معسكرات الاعتقال النازية ـ الحكم على «مارتن» بموت مؤكد، من دون إخضاعه لمحاكمة، وحتى من دون امتلاكهم أدلة، لمجرد أنه ناقش المعتقدات السائدة؟

أيكون أن «ليون» لا يمكنه تصور حياة عليه أن يناضل فيها من أجل ذلك العالم الأفضل الذي طالما تحدث عنه، في أحلامه، مع «سوزانا»، إلى جانب رجال لم يعد قادرًا على الثقة بهم؟

أيكون لأن «ليون»، مثله مثل رجال كثيرين من بلدان أخرى أعرفهم جيدًا، مثل رجال كثيرين آمنوا وسيظلون يؤمنون بقضايا أخرى، اليوم وغدًا، يرفضون أن يسمعوا كلامًا يمكن له أن يقوض إيمانهم؟

أو ربما هو يخاف من شيء مختلف، شيء أكثر قربًا. خوف من نفسه بالذات، مثلًا. خوف مما سيشعر به

في اللحظة التي سيقرر فيها أولئك الرجال التخلص من «مارتن». أهذه هي منطقة وعبه التي حظر عليَّ الدخول إليها؟ أو يمكن أن يكون، وهذا أقرب إلى الصواب، أنه يحظرها على نفسه بالذات؟

خلافًا لمشيئتي، خلافًا لحاجتي الخاصة إلى الحفاظ على الوفاء في عالم بلا وفاء، وفي الصمت الذي يتعاظم كمرض في دخيلة «ليون»، يمكن لي أن أحدس شبح سؤال يطل على السطح، سؤال لا أسمح لنفسي بصياغته حتى الآن ولو بأشد الطرق غموضًا، إذ فور صياغتي هذا السؤال، سيبرز سؤال آخر، وآخر، ثم آخر:

ماذا سيحدث لو أن «ليون» كان ينتظر قرار أولئك الرجال، ليس برعب وإنما بنهم، بحماسة؟ أليس ذلك القرار بالذات هو ما يحتاج إليه: أن يتولى أحدهم تصفية «مارتن»؟ ألن يترك ذلك امرأة «مارتن» تحت رحمته؟ أليس هذا هو ما خطط له طيلة تلك الشهور، متحكمًا بأولئك الرجال في تلك الغرفة بباريس كما لو أنهم أصداء لأفكاره، كما لو أنهم أصابع يده؟

أكتشفُ عندئذ، برعب، أن هذه هي الأفكار التي يتركها ذلك الرجل الآخر، الرجل الذي يبقى في الظل، تطفو من كيانه، مقدرًا ببرود أعصاب ما هو أكثر ما يناسبه، في عالم بلا وفاء. ذلك الرجل الذي يظل مختبئًا ومتيقظًا في الظلال، ذلك الرجل الذي

لا يمكن أن يكون مثل «ليون»، والذي أرفض أن أراه كتوأم لـ«ليون».

ولكن الأسئلة ضمن هذا السؤال تفيض، وأنا أنظر إليها تنمو متعاظمة مثل لطخة آخذة بإظلام الليل:

كيف لي أن أعرف؟

كيف أعرف من هو «ليون» حقًا؟)

ما كاد النادل يأخذ عربة الطعام حتى رن الهاتف. تركتْهُ يرن لبعض الوقت قبل أن ترفع السماعة:

ـ «ليون»؟

ـ أجل.

ـ هنالك شيء أحتاج إلى سؤالك عنه، حول... تلك الرسائل.

ـ أي رسائل؟

ـ التي كان يرسلها إليَّ «مارتن»، وكنتَ تقرؤها قبل إرسالها. ما الذي أضفته إلى تلك الرسائل؟

ـ أخبريني أنتِ. ما الذي أضفتُه؟

ـ في الرسالة الأولى لا شيء، ولكن...

ـ أرسلها إليكِ هو نفسه قبل مغادرته. أرسلناها معًا في اليوم الذي غادر فيه باريس.

ـ أما في الرسالة الثانية...

ـ ماذا أضفتُ؟

ـ ذلك الذِّكر لنهديَّ، مرئيين عن بُعد.

ـ «البعد يفيد، أولًا في إخفائك، وبعد ذلك في رؤيتك. ذات يوم. من أجل أن تختفي أنتِ وأراكِ أنا». أجل. هل انتبهتِ إلى أن...؟

ـ «مارتن» لم يقل لي قطُّ شيئًا مشابهًا، لا شخصيًّا ولا كتابة.

ـ وهل أعجبكِ ما قلتُه؟

صمتتْ هنيهة. ومن الخارج كان يُسمع من جديد صخب أصوات هائجة في الشارع.

ـ كيف أمكن لكَ أن تسيء هكذا استغلال ثقة رفيق في النضال؟

ـ ما الذي كان عليَّ عمله؟

ـ أن تخبر «مارتن» بما فعلته.

ـ لقد كان «مارتن» صلة وصلي الوحيدة بكِ. كنتُ سأخسركِ. حتى هذه اللحظة كنتِ لي في الليالي على الأقل. ولكن عندما تخليتِ عن...

ـ لم أكن أنا يا «ليون»! فأنا لا علاقة لي بهذا كله. ألا تفهم؟

ـ لو أنكِ عدت للظهور في ليلة واحدة على الأقل، كي تنصحيني بما عليَّ عمله، وكيف أخرج من هذا المأزق.

ـ لهذا بدأت تتدخل في رسائل «مارتن»؟

ـ حين قرأتُ الرسالة الأولى، قبل أن أعيد إرسالها، وأدركتُ أنكِ موجودة في المدينة نفسها التي ترعرعتُ فيها... فكرة أنني لا أستطيع رؤيتكِ، ولا سماعكِ، ولا إخباركِ. مع وجود «هتلر» وصوته الملعون يفصل بيننا إلى الأبد... وتلك الأوراق التي بين يديَّ، وستكون بين يديكِ خلال بضعة أيام. وكلمات «مارتن» تلك، بالغة التسطيح، بالغة الرسمية، من دون بصيص من الحقيقة التي...

ـ هذا غير عادل يا «ليون».

ـ واليقين بأنني قادر على تحسين تلك الكلمات بصورة لامتناهية، لأنني كنت أعرفكِ حقًّا... كان الجسر الذي يصلني بكِ بين يديَّ، كيف ألقي تلك الرسالة إلى صندوق البريد من دون تعديل أي شيء فيها، من دون إضافة أي شيء إليها؟ عمل ذلك سيبدو أشبه بتحويل الجسر إلى هاوية. وفي تلك اللحظة جاءني الحدس الرهيب بالمستقبل: تلك الطقوس البلهاء في عدم التواصل تتكرر مرة بعد أخرى، ما دام «مارتن» في موسكو إلى أن...

ـ إلى أن ماذا؟

ـ إلى أن يرجع إلى برلين ولا أستطيع بعدها أبدًا... لم تعد تهمني النتائج. كان عليَّ أن أرسل إشارة سرية إلى أنني موجود، لأرى إن كنتِ ستتعرفين إليها.

ـ هل قلتَ ما قلته لها، في أحلامك؟ أحدثتَها هكذا عن نهديها؟

ـ أجل. وأنتِ تتذكرينه.

ـ ليس صحيحًا.

ـ لكنكِ تعرفتِ إلى هذه الكلمات.

ـ لا.

ـ بلى.

ـ حسنٌ، لا بأس. فلنقل إنها أحدثت لديَّ صدى، استثارتني. كان هنالك شيء... مألوف فيها. كما لو أنني أجرب ثوبًا أول مرة ولا أجد أنني بحاجة إلى إجراء أي لمسة تعديل فيه. قلتُ لك ذلك في رسالتي الجوابية. وأراهن أنك لم ترسل تلك الرسالة إلى «مارتن».

ـ الشيء الوحيد الذي حذفته هو الجملة التي أجبتِ فيها على إشارتي.

ـ نوبة نزاهة، صحيح؟

ـ لا. لم أشأ أن يخامر الشك «مارتن». ما الذي كان سيفكر فيه لو تلقى هذه السطور؟ «أما بالنسبة إلى نهديَّ يا «مارتن»، ما كنت أعرف أن محيطهما يسبب لك كل هذه اللذة، ولا كل هذا الحنين لغيابهما. وأتفق معك، الآن وأنت بعيد، بإحساسي أيضًا بأنك أقرب إليَّ مما كنت عليه في أثناء وجودك هنا. اتكئ إلى وسادتك الباريسية، تنفس واشعر كيف أن أنفاسي أيضًا تنتظرك فيما وراء الحدود، في الجانب الآخر من الأحلام، كي أختبئ أنا أيضًا وتراني أنت أيضًا».

ـ ولم تكتفِ بهذا؟ فقد دسست نفسك من جديد عندما «مارتن»...

ـ لو لم تردي عليَّ، لتعهدتُ لكِ بالتخلي عن الموضوع. لقد تركتُ لكِ المبادرة، مثلما كانت الحال بيننا على الدوام.

ـ أتدري كيف أشعر؟

ـ آمل أن تشعري بالسعادة، لأن هناك من تفهمكِ أخيرًا.

ـ أشعر أنني بلهاء، هذا ما أشعر به. أكتب طيلة أسابيع لـ«مارتن» بينما أنا في الواقع...

ـ ألم تكوني تشعرين بما قلتِه في تلك الرسالة؟

ـ نحوه! كنت أشعر به نحوه، وليس نحوك!

ـ هنالك شيء لا يسير على ما يرام بينكِ وبين «مارتن». لولا ذلك لما رددتِ على ملاحظتي. لقد رددتِ على حبيبٍ يفهمكِ

أخيرًا، ولكنه في ألمانيا كان على الدوام أحجية، سرًّا غامضًا، شخصًا مجهولًا.

ـ هذا غير صحيح.

ـ لقد كتبتِه لي.

ـ ليس لك، بل له.

ـ «معكَ حق في القول إن البعاد عقوبة ولكنه يمكن أن يكون قدرًا كذلك. أشعر بأنك تراني من باريس بصورة أوضح منها حين كنا وجهًا لوجه، في الضباب الكئيب لمدينتنا الكئيبة. أنا أظن أن «هذا»، أن «هذا» يمكن إصلاحه أيضًا عندما نعود للقاء». ما الذي يعنيه «هذا»؟

ـ ليس ما تفكر فيه. لا شيء من الجنس. المشكلة الوحيدة التي كانت عالقة بيننا هي ارتيابه، عدم اهتمامه بالصور التي يلتقطها أطفالي، مهما كان ما أفعله معهم.

ـ لم أكتب أنا هذه الكلمات. كتبتِها أنتِ. وفي تلك الرسائل الأربع التي أرسلتها إلى باريس كنتِ تعرفين أنك تكتبين لشخص لم يكن، ولا يمكن أن يكون «مارتن».

ـ فكرتُ في أن باريس قد غيَّرته، وأن...

ـ لأنه كان «مارتن» أحلام؟ «مارتن» الذي طالما رغبتِ في أن يكون إلى جانبكِ؟ المهتم بما هو مركزي لديكِ، والقادر على جعلكِ تعرفين ليس متعته وحدها وإنما متعتكِ أنت أيضًا: المتعة التي تمنح صوتًا عند التحادث مع أحد يستجيب ولا يكون مجرد صدى؟ لقد قلتُ لكِ الحقيقة دائمًا. والآن دوركِ أنتِ في قولها لي. ما الذي شعرتِ به؟

لم تجبه فورًا. تركز اهتمامها على ملعقة عليها بقايا سُكَّر وقهوة، سقطت على السجادة عندما سحب النادل عربة الغداء. ذبابة تحوم حول الملعقة، تحط، تعاود الطيران، وتقوم بجولة أخرى. تنظر هي إلى حركة الذبابة في الهدوء الحار للمساء الباريسي، ثم تقول:

ـ يروقني كثيرًا هذا «المارتن».

ـ يستثيركِ؟

ـ أجل.

ـ أترغبين في ممارسة الحب معه؟

ـ أرغب دائمًا في ممارسة الحب مع «مارتن».

ـ ولكن هذا كان مختلفًا. كان جديدًا. صحيح؟

لا تُجيب. ينتظر ثم يسأل:

ـ هل حدث شيء؟

ـ هس. لا تتكلم.

ـ ما الذي...؟

ـ هسسسسس.

خطوات في الممر. هذا ما سمعتْه هي. ليست خطوات متكتمة، وليست خطوات تحاول إخفاء حضورها، وليس من يُحْدِثُها شخص واحد: إنهم ثلاثة أشخاص، وربما أربعة، كعوبهم تطرق الأرض بثبات، بتسلط، مهتمين بأن تُسمع، مهتمين بإحداث ضجة، وربما مهتمين بالإزعاج. يتوقفون قبالة باب الغرفة ٢٤٢. صوت رجل يسأل شيئًا بالفرنسية وصوت امرأة مضطرب يرد عليه باللغة نفسها. عندئذ فقط يقرعون الباب.

تغطي سماعة الهاتف بيدها وتهمس:

ـ إنهم يطرقون الباب.

ـ غير ممكن. لقد تركتُ تعليمات بعدم إزعاجكِ مهما كان...

ـ إنهم يطرقون الباب يا «ليون».

ـ لا بد أن ثمة خطأ. ربما نسي النادل...

ـ هنالك أكثر من شخص في الخارج. عدة رجال، وامرأة. إنهم فرنسيون.

ـ لا تفتحي.

ـ وماذا لو حاولوا الدخول؟

ـ لا يمكنهم ذلك. فقد تركت تعليمات محددة جدًّا كي لا...

ـ إنهم يدخلون في هذه اللحظة بالذات يا «ليون».

يُفتح الباب. تتكلم هي بسرعة:

ـ إنهم ثلاثة رجال يا «ليون». والخادمة، تلك التي كانت تنظر إليّ في الصباح. إنهم يدخلون. أظن أنهم... اثنان منهم شرطة.

ـ أيرتدون زي الشرطة؟

ـ أحدهم يرتديه، والآخر لا. ولكنه شرطي أيضًا.

ـ كيف تعرفين هذا؟

ـ لا توجه أسئلة غبية.

ـ وماذا عن الرجل الثالث؟

ـ لا أظن أنه شرطي. يبدو أشبه بـ... إنهم يكلمونني يا «ليون». الشرطي الذي لا يرتدي الزي الرسمي يتوجه إليّ... ماذا أفعل؟

ـ من المستحيل أن...

ـ «ليون»، ماذا أفعل؟

ـ اسأليهم إن كان أحدهم يتكلم الألمانية.

تستجوب هي الأشخاص الأربعة، بالنظر أولًا، ثم بلُغتها بعد ذلك، ولكنها لا تتمكن من إنهاء الجملة. لا وجود لأي بارقة فهم في تلك العيون التي تراقبها بريبة. وفجأة، تقطع الخادمة الصمت، منفعلة، شبه منتصرة، متباهية. الشرطي الذي بلا زي الشرطة يُسكتها. ومستخدمًا نبرة الصوت نفسها، يشير الشرطي بحزم الآن إلى الهاتف.

ـ أظن أنهم يريدون الهاتف.

ـ لا تفلتيه.

وللحظة تسمحُ لبقية من سخرية بأن تداهم صوتها:

ـ بالنظر إلى موازين القوى، لا أظن أن هذا هو الرأي الدقيق تحديدًا.

ـ أأنتِ متأكدة من أنهم شرطة؟

ـ أجل.

يتقدم الشرطي ذو الزي الرسمي ويحاول الاستيلاء على السماعة، ولكنها لا تفلتها. تتراجع خطوة، تصطدم بالسرير وراءها وتقع جالسة على الفراش. ولأن الشرطي يواصل التقدم، تتراجع هي أيضًا منزلقة على مفرش السرير بساقين منثنيتين.

ـ أأنتِ على الخط؟ ما الذي يحدث؟ كيف هو الرجل الثالث؟

تنظر إليه. إنه رجل قصير القامة، أصلع، يلبس بطريقة متقنة لا تشوبها شائبة، إنه أشبه بصورة كاريكاتيرية لموظف.

ـ أظن أنه يعمل هنا، في الفندق.

ـ حوليني إليه.

ومن دون أن تقول كلمة واحدة تقدم السماعة للرجل القصير والأصلع.

ـ ولكن لا تفلتي سماعة الهاتف.

الحاجب ـ إذا كانت هذه هي وظيفته ـ لا يعترض. يقرّب أذنه وفمه من السماعة بطمأنينة من رأى، في تجربته الفندقية الطويلة، أحداثًا أكثر غرابة بكثير. لا تفهم هي شيئًا مما يقوله الرجل في الهاتف، ولا تستطيع أن تسمع كذلك ما يرد به «ليون» بالفرنسية، ولكن نبرة الحاجب مهذبة، ورأسه يهتز مؤكدًا عدة مرات. عندما تبدأ ذراعها تؤلمها يبتعد الرجل عن السماعة، وبانحناءة خفيفة من رأسه يشير إليها أنه عليها هي أن تتكلم الآن:

ـ ما الذي يحدث يا «ليون»؟ ماذا قال لك؟

ـ لدينا مشـ... مشكلة.

ـ لست أفهم.

ـ لا مبرر للقلق، سيتضح كل شيء في... الأمر سخيف جدًا. إنها اتهامات سخيفة.

ـ أي اتهامات؟

ـ إنها تلك الخادمة البلهاء. فقد استقر في رأسها أن... اسمعي، هذا مضحك إلى حد لا يستدعي منكِ مجرد القلق. يبدو أن نائب مدير الفندق لطيف جدًا. يريد منكِ فقط أن تجيبي عن سؤالين يوجههما السيدان الشرطيان.

ـ لا أدري كيف سأجيب عن أسئلة إذا كان لا وجود لأحد هنا يتكلم الأ...

ـ لقد قلت لنائب المدير إنني سأتولى الأمر، وإنني من دفعت نفقات الفندق وإنني سأتوجه الآن مباشرة إلى هناك.

ـ ستأتي؟ أهذا أكيد؟

ـ «سوزانا». منذ خمسة وعشرين عامًا وأنا أنتظر هذا اللقاء. سأكون هناك خلال دقيقتين.

ـ دقيقتين؟

ـ إنني في الفندق المقابل.

ـ أكنت طيلة هذا الوقت...؟

ـ فكرتُ في أنه سيكون من الأفضل أن أكون قريبًا، بسبب الشكوك. وها أنتِ ترين أنني كنت محقًّا. سلميهم وثائقك الشخصية ورافقيهم.

ـ وماذا سنقول؟

ـ لا تقلقي. سنخترع شيئًا.

ـ ولكن إذا هم...؟

ـ لا تواصلي الكلام. لا نريد إيقاظ الشكوك. الشيء الوحيد المهم، عندما تريني، أن تعانقيني كما لو أنكِ تعرفينني جيدًا.

ـ وكيف سأتعرف إليك؟

ـ لن تجدي مشكلة في ذلك.

ـ وبأي اسم عليَّ أن أدعوك حين أراك؟

هنالك لحظات صمت. بعدها تواصل هي نفسها:

ـ لا أعرف اسمك الحقيقي. إنني بحاجة إلى معرفة اسمك الحقيقي.

قال:

ـ «ماكس».

وتسمعُ هي من جديد صوت «كليك» المألوف لإغلاق ذلك الهاتف، ترفع عينيها وتنظر لأول مرة بصورة حقيقية إلى كل واحد من الحاضرين في الغرفة ٢٤٢ الذين ينظرون بدورهم إليها، ينظرون إليها من دون النطق بأي كلمة.

لا أدري من أين سيأتون بها. إنني أنتظرها هنا، في منتصف الطريق بين المصعد والسلالم، كي أتأكد من أنها لدى ظهورها ستراني فورًا، وستعرف على الفور أنني هنا لحمايتها، مثلما كانت هي تحميني طيلة خمسة وعشرين عامًا.

تُفتح أبواب المصعد، وتكون هي هناك فعلًا، وعلى جانبيها الشرطيان، ونائب المدير والخادمة: إنها شاحبة، وقورة، تنظر إلى البهو، باحثة عني بجزع. أنا لا أتحرك. أشعر بعينيها تمران على وجهي وتواصلان عرضًا من دون أدنى إشارة إلى أنهما قد تعرفتا عليَّ، تتوقفان عند وجوه أخرى، تعودان إلى وجهي، تواصلان البحث.

نائب المدير يدعوها بانحناءة من رأسه، كأنها انحناءات «فرساي»، للخروج من المصعد، ولكنها تتجاهل حركته. تواصل ذرع البهو بتينك العينين اللتين أعرفهما جيدًا وتجهلانني مع ذلك.

يحك نائب المدير رأسه، يعاود الإلحاح بحركة أشد تفخيمًا وإن كانت لا تزال لطيفة، ولكنها تبدو كمن لا تراه. تبقى ثابتة في مكانها وسط المصعد، غير متأثرة، متفحصة مرة بعد أخرى كل وجه

من وجوه الرجال الكثيرين الذين يملؤون البهو، كل وجه باستثناء وجهي.

ـ من الواضح (يقول الشرطي ذو الزي الرسمي بالفرنسية) أن الأزمنة ليست ملائمة للتهذب (وأرى يده الغليظة تمسك بذراع «سوزانا» لتُخرجها من المصعد).

عندئذ أبدأُ التحرك.

لم تكن هذه هي الطريقة التي خططت لأن يكون عليها لقاؤنا الأول، لم تكن هكذا رغبتي في رؤيتها لي أول مرة. ولكن لم يبقَ لي خيار آخر سوى التقدم نحوهم والقول للشرطي:

ـ أفلتها (بفرنسية شبه متقنة، فرنسية أحاول أن أداري فيها أدنى أثر من لكنتي الألمانية النائية).

يرد الشرطي:

ـ سأفلتها إن هي تعاونتْ.

أقول أنا:

ـ سوف تتعاون.

يتردد الشرطي لحظة، ينظر إلى زميله ثم يفلتها.

إنها اللحظة التي يجب فيها على «سوزانا» أن تتقدم نحوي، كي تجد ملاذًا بين ذراعي، اللحظة التي ألمس فيها أول مرة بشرة يدها العذبة وأشعر بأنفاسها الدافئة في عنقي وشلال شعرها يلامس أذني. ولكنها لا تقوم بأدنى حركة تذيب المسافة الفاصلة بيننا. تبقى في المكان الذي تركها فيه الشرطي، من دون أن تقول كلمة واحدة، تستكشف بخوف وفضول الوجه الذي أعرضه عليها. وأرغب في أن أمنحها كل ما في الدنيا من وقت كي تكوِّن رأيها الخاص، كي

تبحث في ذاكرتها عن أثر للرجل الذي حلم بها طوال حياته. ولكنني أنتبه إلى أن ذلك التأخير بدأ يصبح خطيرًا: نائب المدير ينظر إلينا بارتياب. ينظر إليها هي التي تنظر إليَّ ولا تعانقني.

أسأله متحولًا إلى الهجوم:

ـ أي نوع من الفنادق هذا الذي يتجسس على نزلائه، ويسمح بأن يهانوا أمام الملأ من دون مسوغ من أي نوع؟

يجيب نائب المدير:

ـ إن كان هنالك أي سوء تفاهم، فإنني متأكد من أنه سيتضح في الحال. إذا استطعنا الانتقال إلى مكتبي...

خلفنا البهو وراءنا وانعطفنا في ممر. لم يلمس أحدنا الآخر بعد، هي وأنا، لم نتبادل بعد كلمة واحدة، تراقبنا أربعة أزواج من العيون المعادية: نائب المدير، والشرطيان، والخادمة التي تختم المسيرة، وتحوم مثل ببغاء وراءنا. يتوقف نائب المدير أمام باب ويفتحه، ويقوم مجددًا بانحناءة الاحترام القديمة نوعًا ما، داعيًا الآخرين إلى الدخول. تدخل هي أولًا، وبعدها أنا، يتبعنا الشرطيان، وحين تكون الخادمة أيضًا على وشك أن تفعل ذلك، يمنعها نائب المدير بإيماءة فظة بينما هو يدخل ويغلق الباب وراءه. ثم يشير إلينا أن نجلس على صوفا، ولكنها تفضل كرسيًّا غير مريح ومنعزلًا وأقف أنا إلى جانبها، من دون أن ألمسها، ومن دون أن أعرف من خلال أصابع يديها كيف تفكر فيَّ، ومن دون أن أتأكد إن كانت حرارة بشرتها مثلما تخيلتُها دومًا.

يقول الشرطي الذي لا يرتدي الزي الرسمي:

ـ حسنٌ. لماذا لا تبدأ حضرتك أيها السيد بالتوضيح لنا ما هي علاقتك بهذه المسألة؟

ـ أنا صديق للآنسة وخطيب الآنسة.

ـ وهل يمكنك إثبات ذلك؟

ـ طبعًا.

ـ أتعرفها منذ زمن طويل؟

ـ منذ سنوات طويلة.

ـ أنت أيضًا ألماني؟

ـ أجل.

ـ آها.

ـ ولكنني أعيش في باريس منذ ست سنوات. منذ أن أصبح من المستحيل العيش في بلادي.

ـ ولماذا تتكلم الفرنسية بهذه الصورة الجيدة؟

ـ إنها لغتي الثانية. لهذا قررتُ المجيء إلى باريس عندما النازيون... ولكن لا علاقة لهذا الأمر بهذه القضية. ليس لديَّ وقت طويل وكذلك الآنسة. إن كان بإمكانكم الإشارة إلى الأدلة المتوفرة، وعلى أي شيء يستند الاتهام...

ـ إنكما مستعجلان، إيه؟

ـ بالفعل.

ـ لعمل أي شيء؟

ـ لستُ أفهم سؤالك.

ـ أظن أنك تفهمه.

وفجأة يقطع صوتها المحادثة سائلة بالألمانية:

ـ ما الذي يحدث؟ ما الذي يقوله هذا الرجل؟

أُجيبُها:

ـ بلاهات.

وأتوجه إلى الشرطي:

ـ هذه هي رحلة الآنسة الأولى إلى فرنسا، وهي لا تعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية، ولهذا لا أساس لاعتبارها جاسوسة. بل على العكس في الواقع: الآنسة وصلت من ألمانيا للتو هاربة من النظام الذي أنتم على وشك دخول حرب معه. وبدلًا من أن تجد التفهم هنا، في يومها الأول على أرض حرة وأخوية، تصطدم بـ...

تقاطعني هي من جديد:

ـ ما الذي تقوله لهم؟

ـ تلك الخادمة البلهاء تتهمكِ بأنكِ جاسوسة.

ـ جاسوسة؟ أنا؟

ـ وهكذا أوضح لهم أنكِ هاربة من ألمانيا. أي أنكِ...

ـ هذا غير صحيح. لا تقل لهم هذا. إذا ما أخبروا السلطات الألمانية عن...

ـ أنتِ لا تفهمين. لقد غزا «هتلر» بولونيا صباح هذا اليوم. إنها الحرب.

تقول هي:

ـ رباه!

تقول هذا وحسب. ويؤلمني شحوبها، تنفسها المتقطع. يؤلمني أن يديها ترتفعان إلى وجهها وتخفيانه. يؤلمني ألمها الذي هو ألمي على شعبنا المسكين، على بلدنا الحزين، على عصرنا المتوحش القاسي.

يسأل الشرطي الذي بلا زي رسمي:

ـ وماذا تقول هي؟

ـ تقول إنها بريئة، وإنه من الإجحاف معاملتها على هذا النحو، بينما الجليّ أنها متحدة معكم في القضية نفسها.

يقول الشرطي الذي بلا زي رسمي:

ـ هذا موضوع بحث، لأن سلوكها بدا لنا مثيرًا جدًّا للريبة.

ـ أيُّ ريبة؟

ـ تسع ساعات وهي تتحدث في الهاتف. أيبدو لك عاديًّا أن يتحدث أحدهم تسع ساعات في الهاتف؟

ـ كانت تتحدث معي.

ـ تسع ساعات؟

ـ لدينا أمور نتحدث فيها.

ـ أي أمور؟

ـ أرجوك أيها الضابط. حضرتك قادر تمامًا على أن تتخيل ما يتحدث فيه رجل عادة مع امرأة.

ـ وهل كنتَ أنت في تلك الأثناء في الفندق المقابل؟

ـ أجل.

ـ مع أنك تعيش في باريس؟

ـ أجل.

ـ ولكنك بدل اللقاء بها في غرفة هذا الفندق، أو في بيتك، مثلما يفعل أي كائن طبيعي، كنتَ تتكلم في الهاتف، خلال ما لا يقل عن تسع ساعات. أضف إلى ذلك، تريدني ألا أفكر في أنكما لا تخفيان شيئًا، وأنكما لا تريدان أن تُريا معًا.

ـ أيمكنني التحدث إليكَ بثقة؟

ـ يمكنك دائمًا التحدث بثقة. معي ومع أي شرطي في هذه البلاد.

ـ عندما يتخذ رجل وامرأة احتياطات كي لا يُرَيا معًا... أنا صديق لخطيب هذه الشابة، ولكنها كانت تعجبني دومًا. وهكذا كنت أمنح نفسي الوقت اللازم من أجل... حضرتك تفهمني.

ـ أكنت تحاول إغواء خطيبة صديقك؟

ـ هذه طريقة فظة لوصف الحالة. ما كنت أرمي إليه هو جعلها تتوصل إلى معرفتي بصورة أفضل قبل أن... حضرتك تعرف.

ـ ولكنك قلت للتو إنها تعرفك منذ زمن بعيد، بعيد جدًّا.

ـ لم أقل هذا. قلت إنني أنا أعرفها منذ سنوات طويلة. ولهذا يمكنني الوثوق بها. هذا ما قلته.

ـ وماذا عن آلة التصوير؟

ـ ما علاقة آلة التصوير؟

ـ إنها نموذج متطور جدًّا. آلة مثالية للتجسس. أنت تضع النص، وهي تضع الصور.

ـ هذا مضحك. أي نوع من التجسس يمكنني القيام به؟

ـ ما هو عملك؟

ـ أدرس.

ـ في مثل عمرك هذا؟

ـ أقوم بإعداد بحث للدكتوراه.

ـ وكيف تمنح نفسك ترف دفع إيجار غرفتين في فندقين مختلفين من الدرجة الأولى؟

ـ لديَّ وسائل مستقلة.

فجأة، تنهض هي واقفةً. ثوبها الأزرق يلامس بضراوة ركبتي وأشعر بجرح حضورها أقرب من أي وقت إلى جسدي.

ـ أريد التحدث إلى أحد من سفارتنا. أريدك أن تخبرهم بهذا.

ـ لا يمكنني قول هذا.

ـ لمَ لا؟

ـ أولًا، لأن السفارة ستكون قد أُغلقت في هذا الوقت بالذات. ولكن الأهم من ذلك هو أنهم سيصدقون أنكِ مذنبة. إنني أحاول إقناعهم بأنكِ أتيت هاربة من برلين...

ـ وأنا أصر على أنك لا تستطيع قول هذا. يجب أن أعود إلى...

ـ لا يمكنكِ العودة.

ـ ماذا تقول؟

ـ لم يعد بإمكانكِ العودة.

ـ وتقول لي هذا الآن؟

ـ كنت أفكر في أن أقوله لكِ ما إن...

ـ سوف أعود، ولتقل ما تقول. أنت تعرف أنني تركتُ عشرة أطفال هناك... ومجموعة صوري كلها. لا يهمني أن الحرب قد اندلعت. سوف أعود.

قاطعهما الشرطي الذي بلا زي رسمي:

ـ ما الذي تقوله؟

ـ إنها متوترة جدًّا.

فجأة قال الشرطي الآخر:

ـ إذا كانت بريئة، فلا مسوغ لتوترها.

أقول أنا:

ـ إنها بريئة بالطبع. الخطيئة الوحيدة التي ارتكبتها هذه المرأة هي أنها تكلمت طويلًا في الهاتف مع صديق قديم حول شؤون خاصة، في يوم بالغ الخصوصية. شديد الخصوصية إلى حد استثارت معه شبهات يمكن تفهمها ـ لحديثها في الهاتف وكونها ألمانية ـ في خادمة ممتلئة بالحماسة الوطنية ولكنها هستيرية بطريقة ما. وهكذا إذا لم يكن هنالك دليل آخر...

ـ لسوء حظ حضرتك، هنالك دليل آخر.

من يتكلم الآن هو نائب المدير.

ويتكلم بالألمانية.

ويواصل الكلام الآن، بينما الشرطيان يبتسمان:

ـ أجل، أنا أعرف لغتكما. لسنا جهلة جدًّا نحن الفرنسيين. أنت تتكلم الفرنسية، وأنا أتكلم الألمانية. وهكذا صرتُ أعرف أنكما تفبركان قصة لستما على توافق تام بشأنها، وأعرف أنها تريد الاتصال بسفارتها، وأعرف أن حضرتكَ قد قلت إن الشرطة الفرنسية بلهاء.

وفجأة أشعر بأصابع «سوزانا» بين أصابعي، مثل يد طفلة صغيرة تطلب مساعدةً لنزول درج. وبينما أنا أضغط بحماسة على يدها، أفكر في أنني لا أريد إلا أن أغمض عينيَّ، وأن أجوب كل إصبع من أصابعها، وأضع شفتي على راحة يدها، وأتذوق العرق الخفيف المنبثق من بين الفقرات. من قبل همستْ «سوزانا» قائلة إنها ستعود، ستعود في كل مرة أحتاج إليها، إلى أن تخرج من بوابة الأحلام وأجدها هنا، أمامي، والآن، بينما هي تقف إلى جانبي أخيرًا، لا أجد الوقت، لا يتوافر الوقت، لا يتوافر الوقت، لستُ أفهم لماذا لا يتوافر الوقت أبدًا لأناس مثلنا.

لقد انتظر فمي خمسًا وعشرين سنة هذه اللحظة التي يقترب فيها جسد «سوزانا» ويدعوني، كما في الحلم، وما على فمي أن يفعله الآن من أجل إنقاذها هو الكلام، ولا شيء سوى الكلام والكلام. ما يجب عليَّ عمله الآن هو التفكير بصورة مستعجلة فيما عليَّ أن أرد به على نائب المدير الذي ينظر إلينا نظرة ظافرة. فك شيفرة طريقة ما للخروج من هذه المتاهة.

أقول بالفرنسية، كي يفهمني الشرطيان:

ـ صحيح أننا كنا نتناقش أيها السيد، ولكن كرر لي شيئًا قالته هي أو قلته أنا يثبت أننا جاسوسان. قل لي شيئًا واحدًا. جملة واحدة سمعتها من محادثتنا.

يقول نائب المدير، بالفرنسية أيضًا:

ـ لقد رأيت وسمعت أشياء كثيرة في حياتي أيها السيد، وخصوصًا في الخنادق، في أثناء القتال ضدكم في الحرب العظمى. وها نحن نتواجه الآن من جديد. وإن كنا غير قادرين على أن نكون في الخنادق، يجب علينا المساعدة قدر استطاعتنا في كسب هذه الحرب. المساعدة بهاتين العينين، بهاتين الأذنين. وسوف نكسب هذه الحرب. مثلما كسبنا الحرب السابقة. سوف نوجه إليكم ضربة قاصمة.

صفق الشرطيان بصورة غير معقولة لخطبة نائب المدير المقتضبة.

أقول أنا، مهنئًا إياه على طريقتي:

ـ أرجو ذلك. أرجو أن يوجه أحد لأبناء العاهرة النازيين أولئك ضربة قاصمة. ولكنكم لن تكسبوا الحرب بملاحقة الأبرياء الذين يبحثون عن ملجأ في بلادكم ضد...

يتوجه نائب المدير الآن إليها بالألمانية:

- آنستي، هل تعتبرين نفسكِ لاجئة في هذه البلاد، أم تفكرين في العودة إلى ألمانيا؟

- أريد العودة فور تمكني من ذلك.

أتدخلُ أنا:

- إنها لا تعرف ما الذي تقوله. إذا ما رجعتِ يا «بربارا» سيقتلونكِ.

- لماذا سيقتلونني؟ أنا لم أفعل شيئًا.

- عليكِ أن تصدقيني.

تقول هي لنائب المدير:

- هذا الرجل لا يتكلم باسمي، أرجوك يا سيدي أن تتصل فورًا بسفارة بلادي من أجل توضيح سوء التفاهم هذا.

يقول نائب المدير:

- لستُ أنا من يتصل بالعدو (يومئ إلى الشرطيين) يمكنكما أخذهما. وإذا احتجتما إلى أن أواصل تعاوني في التحقيق، كمترجم، فإنني مستعد لمرافقتكما.

يرد الشرطي ذو الزي الرسمي بوقار:

- الوطن يشكرك، ولكن لدينا أناسًا في المفوضية يمكنهم الترجمة. لقد قمت بواجبك.

يُخرج الشرطي قيدًا من جيبه، وبسرعة مفاجئة يفصل يدي عن يد «سوزانا» ويقيدنا.

يقول نائب المدير، بالألمانية مرة أخرى:

ـ فلينفعكما هذا كدرس. قل لأمثالك ألا يتجرؤوا على استخدام فندقي للتآمر ضد الجمهورية.

أقول لـ«سوزانا» بازدراء:

ـ من المؤكد أن هذا الوغد نفسه كان يبشر قبل ستة أشهر بسلام «ميونخ» وبالتعايش مع «هتلر». وها أنتِ ترين... إنهم هكذا أبناء العاهرة هؤلاء.

قبل أن يتمكن نائب المدير من الرد، تدفعنا الأيدي الشرطية نحو الباب. تتعثر «سوزانا» وترفع ذراعها للبحث عن نقطة استناد لها على منضدة المكتب، فتشد معصمي المقيد معها بعنف.

ولكن ليس انفجار الألم المفاجئ هو ما يداهمني وما يسيطر عليَّ وما يهزني. وإنما، بصورة لا تصدق، سعادة مجنونة، غير عقلانية وغير متوقعة بالكامل. أعرف أن هذا هو ما يمكن أن يكون قد حدث. أعرف أن مخططاتي كافة قد ذهبت إلى الجحيم. أعرف أننا قد تخوزقنا، هي وأنا وربما كذلك «مارتن» و«كلاوديا» و«ويلي» والآخرون جميعهم. وأعرف أن هناك، في تلك اللحظة بالذات، ملايين الرجال في كل أنحاء الكوكب يستعدون للذهاب إلى القتال في حرب سيموتون فيها هم ونساؤهم وأبناؤهم. ولكن هذا كله يبدو بعيدًا وغير حقيقي حيال الواقع المُنْكِر بأن يدي متحدة بصورة لا انفكاك فيها بيد «سوزانا»، وأنه على يدي أن تتبعها حيث تريد هي أخذها.

إنها معجزة: مثل إله مخمور وحكيم، أحد غريب تمامًا عنا قد استخدم هذين الخاتمين الحديديين كي يقيدنا، كي يوحدنا في زفاف

هذياني. كما لو أن أحدًا غيري، أخيرًا، في نهاية المطاف، يحلم بنا معًا.

عندما استعادت هي توازنها، تركتُ يدي تنزل بنعومة وكان عليها هي أيضًا أن تُنزل يدها مع يدي. عندئذ تبادلنا النظر. وأظن أنني قد رأيت في عينيها أنها هي أيضًا قد انتبهت إلى أننا عالقان مثل توأمين في المرآة اللامتناهية وشبه الأبدية لجسدينا.

أظن أن «سوزانا» تعرفني.

وأشعر بأني سعيد بصورة غير معقولة.

(أحدهم يقترب.
إنه الرجل الذي يكمن بين الظلال، ذلك الرجل الذي يجهل «ماكس» وجوده، ذلك الرجل الذي لديه خطط لـ«ماكس» وللمرأة التي يسميها «سوزانا».
إنه يقترب وأنا لا أعرف كيف أنقذ «سوزانا».
أهذا هو السبب في أن «ماكس» أتاح لي الدخول في حياته؟ لماذا يمكن لشخص مثلي أن يساعد «سوزانا»؟
أعرف أن «ماكس» لا يهتم بأمنه الشخصي. أعرف أنه لا يهتم بالثمن الذي عليه أن يدفعه. «أنقذها، الشيء الوحيد الذي أحتاج إليه هو أن تنقذها»، يقول متحدثًا إلى نفسه بالذات، طالبًا مني المساعدة، عبر هاوية هذه السنوات التي تفصل بيننا.
لو أن هذا فيلم، ولو أن الأبطال فيه أمريكيون يقاتلون ضد دكتاتورية افتراضية في مستقبل ناءٍ، فإن كُتاب السيناريو سيعرفون كيف يجدون حلًّا، طريقة ما لإنقاذ «سوزانا»، وربما لإنقاذ «ماكس» أيضًا.

ولكن هذا ليس فيلمًا وأنا لا أدري ما عليَّ عمله.

بل إنني لا أدري إن كان بإمكاني الثقة في الرجل الذي يقول إنه يدعى «ماكس».

الشيء المؤكد هو أن «ماكس»، في أثناء ترددي، والمرأة التي يدعوها «سوزانا» قد أُصعِدا إلى عربة شرطة مغلقة وهما يسمعان صوت المفتاح في القفل وزمجرة المحرك، ويبدآن التحرك في شوارع باريس.

وهما لا يعلمان أن هنالك رجلًا ينتظرهما، هذا الرجل الذي بقي في الظلال حتى الآن، هذا الرجل الذي لديه خطط، هذا الرجل الذي يعرف حقًّا كيف ينقذ «سوزانا».

يمكنه إنقاذها.

على أن يكون «ماكس» مستعدًّا لدفع الثمن).

لا وجود لسكينة، ولا لحنان أيضًا في صوتها. وإذ صارا وحيدين في قفص الشاحنة الشرطية وأمكنهما الكلام، قالت هي:

ـ ابن العاهرة.

ـ أجل. لقد تظاهر بأنه لا يتكلم الألمانية و...

ـ لستُ أعنيه هو! بل أنت! جميع خططك خرجت كما تشتهي في نهاية المطاف. أم إنها غير ذلك؟

ـ أي خطط؟

ـ في البدء تقرأ رسائلنا، وبعد ذلك ترد عليها متظاهرًا بأنك «مارتن»، ثم تأتي بي إلى باريس بقصة سخيفة.

ـ صحيح، هذا صحيح، كل ما فعلتُه...

ـ والأدهى من ذلك كله، عندما اعتقلتني الشرطة، كذبت عليها بكل وقاحة. وكل ذلك كي أبقى في هذه المدينة اللعينة إلى الأبد.

ـ لا شيء يتحقق مثلما أردته...

ـ انظر إلى نفسك. إنك مُشرق. إنك سعيد.

ـ لأنني معكِ يا «سوزانا».

ـ قلت لكَ لا تدْعُني «سوزانا»!

ـ لماذا لم تقطعي المكالمة الهاتفية إذن، حين تكلمتُ عن...

ـ وأفقد بذلك الاتصال بـ«مارتن»؟

ـ أكان هذا هو السبب الوحيد لمواصلتكِ الحديث معي؟

ـ أجل. كي أستدرجك للحصول على معلومات عن «مارتن».

ـ دون أي سبب آخر؟

ـ دون أي سبب آخر.

ـ إنكِ تكذبين.

ـ أنا أكذب؟ ألديك الوقاحة لـ...؟ لا أريد الجدال معك أكثر. تقول إنه كان بإمكاني قطع الحديث لو رغبتُ في ذلك. حسنٌ جدًّا. يمكنك أن تعتبر أنني قطعت الآن كل تواصل بيننا.

ـ «سوزانا».

صمت.

ـ «بربارا».

تواصل عدم الرد.

في الخارج، في الليل الباريسي، هنالك أصوات تصرخ، وصخب شعب هائج بسبب الحرب. الحرب.

ـ «بربارا»، ليس لدينا متسع من الوقت. فلنحاولَ على الأقل إنقاذ «مارتن» والآخرين. فلنضع إستراتيجية من أجل أن نتمكن من إشعار...

ـ إشعار ماذا؟ أنك استغللتَ ثقة الجميع كي تخوننا؟

ـ كي أنقذكِ!

ـ وتبقى معي.

ـ ماذا يمكنني أن أفعل كي تصدقيني؟

ـ يمكن أن تخبرني بالحقيقة.

ـ لم أكذب عليكِ قطُّ.

ـ إنني متعبة من تصريحاتك الرومانسية. سوف أسأل، وأنت تجيب. موافق؟

ـ موافق.

ـ أولًا. متى سيصل «مارتن» إلى باريس؟

ـ بعد غد.

ـ إذا كان قد ذهب للبقاء سنة، ولم ينقضِ عليه سوى شهرين منذ أن...

ـ اضطر إلى قطع تدريبه.

ـ لماذا؟

ـ خلافات داخلية. أمور تخص المنظمة. أشياء لا تهمك.

ـ دعني أنا أقرر ما يهمني وما لا يهمني. موافق؟ إذا ما توصلتَ إلى رؤية «مارتن». لأنه بعد بلوغ الأمور هذا المستوى...

ـ سنراه، كلانا.

ـ اصمت. ماذا تفكر في أن تقول له، بعد غد؟

ـ سأقول له إن عودته إلى ألمانيا قد بُرمجت.

ـ متى سيرجع؟

ـ فورًا.

ـ وماذا كانت المشكلة إذن؟

ـ أن «الجستابو» يعرف ظاهريًا حقيقة هويته. سيكونون في انتظاره.

ـ وهو لا يعرف هذا؟

ـ لذا يجب عليَّ أن ألتقي به.

ـ أهذا يعني أنه سيكون عرضة للخطر إن رجع؟

ـ أجل.

ـ لستُ أفهم. هل ستعيده منظمتك وهي تعلم أنه سيتعرض...؟

ـ المسألة معقدة جدًّا. خلال الأسابيع الأخيرة، منذ مرور «مارتن» بباريس، قتلوا أو اعتقلوا عميلين كانا تحت مسؤوليتي، وبعض من في المنظمة يرتابون بأنه خائن، مندس، وأنه راح يسلمنا واحدًا فواحدًا. ويفكرون في أنه من الأفضل التخلص منه بإعادته إلى ألمانيا.

ـ وأنت، ألم تدافع عنه؟

ـ أظن أنهم ما عادوا يثقون بي.

ـ تظن أم إنك متأكد؟

ـ أكاد لا أكون متأكدًا من وجودي نفسه. وبما أنهم حظروا عليَّ أي اتصال بـ«مارتن»...

ـ كيف عرفت أنه سيأتي إذن؟

ـ أخبرني صديق بذلك.

ـ أهو «ويلي»؟

ـ كيف عرفتِ هذا الاسم؟

ـ أنت أخبرتني به. ألم يكن هو المسؤول في الأصل عن «مارتن»؟

ـ لا أتذكر أنني ذكرتُ هذا الاسم.

ـ هل سترتاب بي الآن؟

ـ لا.

ـ كيف كنت تفكر في إخبار «مارتن» بالخطر الذي يتعرض له إذا كنت غير قادر على رؤيته؟

ـ من خلالكِ.

ـ مزيد من الأكاذيب!

ـ كنت أفكر في أن أخبر «فولف»، قائدنا، أنكِ قد وصلتِ فجأة إلى باريس، وأنكِ تركت رسالة لـ«مارتن» في علبة البريد. فلا يجدون خيارًا آخر سوى وضعكِ على اتصال به، إذا كانوا لا يريدون إثارته. وحين يتصلون بكِ، أنت ســ...

ـ ألهذا جئت بي، من أجل أن...

ـ أردتُ أن أنقذ «مارتن»، مثلما أخبرتكِ. ولكن ما كان يهمني أكثر هو إنقاذكِ أنتِ.

ـ لا أرى ما الخطر الذي يتهددني.

ـ لا تتظاهري بالسذاجة. إذا ما اعتقلوه هو، هل تظنين أنهم لن يرتابوا بخطيبته التي تمضي متجولة في برلين لتلتقط صورًا مع جماعة من الأطفال؟

ـ وإذا حذرتُ «مارتن» الآن، سيبقى هو وسأرجع أنا، ماذا يمكن أن يحدث لي؟

ـ إذا ما رجعتِ بعد أن تلتقي به في باريس، سيرتابون أيضًا بأنكِ عضو في المقاومة.

ـ لن يسمح أبي أبدًا بأن...

ـ لن يحرك أبوكِ إصبعًا لإنقاذك بعد أن يعلم أن خطيبك يعمل معنا.

ـ هذا يعني أنني سأضيع مهما حدث.

ـ أما أنا فأقول إنكِ قد نجوتِ.

ـ متهورون برازيون، أنت ومنظمتك، تقررون كل شيء بشأني من دون أن تستشيروني. أنت، و«مارتن»، و«ويلي»، و«فولف» هذا، ومن يدري من أيضًا: إنكم مثل النازيين. من كثرة ما تآمرتم ضدهم، انتهيتم إلى التشبه بهم.

ـ ليس صحيحًا!

ـ ما الذي تسعون إليه: بناء إنسانية جديدة، تحرير الإنسان، بهذه الأساليب؟

ـ «بربارا»، لقد اضطررتُ إلى أن أقرر هذا كله بنفسي لأنكِ لم تكوني موجودة وحسب. في أحلامي، كنا نقرر كل شيء معًا. والآن وقد صرنا...

ـ معًا؟ إننا معتقلان، مقيدان، منقطعان عن الاتصالات. ما فائدة أننا معًا؟

ـ يمكنكِ أن تقدمي لي نصائح على الأقل.

ـ نصائح؟ أتريد نصيحة؟ لا تواصل الكذب عليَّ.

ـ أنا...

ـ أتدري؟ لا فرق عندي إن كنت تقول لي الحقيقة، أو أن هذا كله خرافة هائلة، وأنك أنت من تخون الجميع لتتخلص من «مارتن». الشيء الوحيد الصحيح...

ـ «بربارا»!

ـ الشيء الوحيد المؤكد في هذا كله، الشيء الوحيد الذي استطعتُ التأكد منه حتى الآن، هو أنك استطعت أخيرًا الحصول

على ما أردته: أن أهجر أطفالي في برلين، وأن آتي إلى باريس، ولم أعد قادرة على العودة إلى ألمانيا، وينتهي بي المطاف هنا، معك. هذا هو ما نويتَ عمله مذ رأيت صورتي، أليس صحيحًا؟ هذه هي خططك!

ـ لا.

ـ وكل هذا من أجل أن تمارس الحب معي. أم إنك تنكر أن كل ما فعلته كان من أجل هذا؟ ألست تسعى إلى النوم معي؟ قل الحقيقة.

ـ ولكن لليلة واحدة فقط.

ـ ماذا تقول؟

ـ لليلة واحدة فقط.

ـ فعلتَ كل ما فعلته من أجل...؟ أهذا يكفيك؟ ليلة واحدة؟

ـ هذا كل ما أسمح لنفسي بانتظاره.

ـ وفيما بعد هذه الليلة؟

ـ الأمر يعتمد على ما سيحدث بيننا. إذا ما شعرتِ نحوي بما أشعرُ...

ـ أكنت مستعدًّا لأن تتخلى عن «كلاوديا»؟

ـ أنا لا أستطيع تصور الحياة من دون «كلاوديا».

ـ ولكنك لم تخبرها بأي شيء حول هذا كله.

ـ كنت أفكر في إخبارها فورًا.

ـ فور قضائنا ليلة معًا؟

ـ أجل.

ـ وكيف تظن أنه سيكون رد فعلها؟

ـ هي لن تتخلى عن حبها لي.

ـ أنت عاشق عظيم، إيه؟

ـ لا.

ـ أكنت تظن أنني سأهيم في حبك، وأنني سأهجر «مارتن» ما إن...؟

ـ لقد قلتُ لكِ إنني لست عاشقًا جيدًا يا «بربارا». لا أظن أنني قادر على المنافسة مع «مارتن» في الفراش.

ـ وماذا تعرف عن كيف هو «مارتن» في الفراش؟

ـ ما قاله هو لي فقط.

ـ الرجال يقولون أشياء كثيرة. لقد بدا لي غريبًا أن يكتب لي «مارتن» أنه يريد ليلة واحدة فقط معي على هذه الأرض. وإذا أنا لم أوافق، بعد مجيئي إلى باريس؟ ماذا ستفعل عندئذ؟

ـ لم أطرح هذا الأمر قطُّ، ولا حتى كاحتمال. أفترض أنه إذا لم يتوافر لامرأة ما يكفي من السخاء لتقديم ليلة واحدة لرجل ظل وفيًّا لها مدى الحياة، على ذلك الرجل أن يعترف عندئذ بأنه قد أخطأ، وأن يمحوها من حياته، ويواصل البحث. لأنها لو كانت «سوزانا» الحقيقية لفهمته.

ـ ولكنني لستُ «سوزانا».

ـ هذا ما لم نعرفه بعد.

ـ وكيف ستعرفه؟

ـ بممارسة الحب يا «سوزانا».

ـ «سوزانا»، «سوزانا»، «سوزانا»! لقد مللت. سوف أثبت لك

أنني لستُ «سوزاناك» اللعينة يا «ماكس». هذا هو اسمك الحقيقي، أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ سوف أثبت لكَ. وهل تدري كيف؟ برجوعي إلى ألمانيا. إلى حياتي، إلى بلادي، إلى لغتي، إلى أولئك الأطفال العشرة الذين يعتمدون عليّ، أولئك الأطفال الرائعين الذين لا يحلمون أحلامًا إباحية مع نساء مستحيلات، وإنما يحلمون ببلاد...

ـ بلاد براز.

ـ أجل، ولكنها بلادي. وهي بحاجة إليَّ. إذا ما غادر ألمانيا جميع أولئك الذين يكرهون ما يحدث، ما الذي سيحدث عندئذ للـ...؟

ـ «بربارا»، إن رجعتِ سيقومون...

ـ لن يفعلوا بي شيئًا.

ـ سيسألونكِ عن «مارتن».

ـ وسأخبرهم بما أعرفه عن «مارتن»: لا شيء! لا شيء، لا شيء، لا شيء. ألم يكن هذا هو سبب إخفائه نشاطاته السرية عني، كي لا أستطيع أن أقول شيئًا لأحد؟

ـ لم يخبركِ لماذا قررنا أن ذلك هو الأفضل لكِ.

ـ إلى متى ستقررون ما الجيد وما السيئ للآخرين؟ أنا لم أطلب منكم أن تحموني. لستُ بحاجة لأن تحموني.

ـ و«مارتن»؟ ألا يحتاج هو إلى أن يحموه؟

ـ لا أريد إلا أن تتركوني بأمان. أنت و«مارتن» ومنظمتكم.

ـ لا أصدق أنكِ تقولين لي هذا حقًا.

ـ ألأني لست مثل «سوزاناك». إيه؟ ألأنني لستُ جنديًّا صغيرًا صالحًا، مطيعًا حتى النهاية، يفعل كل ما تطلبه منه في أحلامك؟ لأني لست مستعدة للتضحية بنفسي من أجلك، ولا أن أعيش ما تبقى من حياتي بين أجانب، تائهة بلا وجهة؟ عليكَ أن تبدأ بالاعتياد إذن على فكرة أنني لستُ مثلها. لأنني لست هي! أتقتنع؟

لقد توقفت الشاحنة عن الحركة منذ عدة دقائق، فقد وصلوا إلى مركز الشرطة. يُفتح الباب ويَطلب منهما الشرطي الذي بلا زي رسمي بالفرنسية أن يترجلا. ولكن قبل أن يفعلا ذلك يرفع الرجل الذي يقول إن اسمه «ماكس» يده المقيدة نحو وجهها ويرتب وضع خصلة شعر متمردة تتهدل على جبهتها. ويقول لها، بعذوبة لا تبدو متصنعة:

ـ ليس بعد.

(وماذا لو أن «ماكس» كان يخدعني، مثلما كان طيلة هذا الوقت يخدع المرأة التي يدعوها «سوزانا»؟ ماذا لو أنه جعلني أظن أنه بريء، بينما قد يكون هو من خان رفاقه في المنظمة كي يجَرِّم «مارتن»، ويستحوذ على المرأة؟

لأنه إذا لم يكن هو من خانهم، فمن هو الذي خانهم؟

يداهمني الاحتمال المعتوه في أنه يمكن أن يكون «فولف» أو «ويلي» أو أي شخص من الآخرين.

ولكن ما هي مسوغاته؟

يظل هناك على الدوام، وفي الحقيقة، احتمال أن يكون ذلك الرجل الآخر، رجل الظلال الذي خشيتُ منه مذ بدأت أسمع محادثة «ماكس» و«بربارا».

ومع ذلك، مهما واصلتُ وواصلتُ الإعلان عن ظهوره الوشيك، فقد بدأت أتساءل عما إذا لم أكن قد اختلقته أنا، من أجل أن أنقذ «ماكس»، من أجل أن أنقذ هذا المنفيّ الذي أشعر بأنني متحد معه مثل توأم مريض.

«ماكس» بحاجة إلى اللقاء بـ«سوزانا». وما احتجتُ إليه أنا منذ البداية هو ألا تكون هذه قصة خائن. ما أحتاج إليه أنا هو التأكد من أنه ما زال من المحتمل، في أزمنة مثل زمننا، أن نروي، ولو لمرة واحدة، قصة يكون البطل فيها ـ أجل، سأقول الكلمة ـ طيبًا.

وهكذا أبذل الآن جهدًا كي أرى «ماكس» في اللحظة التي يفكون فيها قيده، عندما يفصلونه عن امرأة أحلامه، عندما يعودون إلى تقييده، ويداه وراء ظهره، ويضعون عصابة على عينيه، ويقتادونه إلى حجرة خاوية، ويتركونه وحيدًا، ينتظر.

لو أنني أستطيع تقدير رد فعله، لو أنني أستطيع قراءة ملامح وجهه، لو أنني أستطيع التأكد مما يفكر فيه... ولكنني فقدتُ كل أثر له.

أجد نفسي مجددًا في هذه الحجرة حيث أكتب، في بلد ليس بلدي، وبعد عقود طويلة من الوقائع، أنا نفسي الناجي، العاجز عن عمل أي شيء من أجل «ماكس»، أو من أجل «سوزانا»، أو من أجل أي شخص آخر من سكان هذا العالم، والمتلهف بيأس إلى إقرار براءة صديقي، فأكتشف أنني أتأمل بعبثية في احتمال أن تكون «كلاوديا» هي الخائنة، من دون أن يتوفر لي أي دليل يدعم شكوكي سوى الصورة النمطية المبتذلة للزوجة المريضة بداء الغيرة، والتي تنسج مؤامرة مريعة للانتقام من رجل خدعها.

لو كان هذا الذي يجري فيلمًا لانتهت القصة نهاية سعيدة، بلفة أخيرة تضمن مكافأة البريئين ومعاقبة الأوغاد. هل يريد «ماكس» إنقاذ «سوزانا»؟ وبأي ثمن؟ فلنفترض أن «سوزانا» تنتمي أيضًا إلى المنظمة، وأنها المكلفة باكتشاف الخائن المندس، وأنها بفعل السحر لم تعد المرأة المستكينة التي يجري التلاعب بها مثلما عرفناها حتى الآن، وتتحول إلى شخصية تتحكم تمامًا بكل ما يجري لها. ولنفترض أنها تفعل بـ«ماكس» ما فعله «ماكس» بها: تكذب عليه، تخفي عنه، تعرف أكثر مما تقوله له. ولنفترض أن «مارتن» ما هو إلا قطعة من آلية خطتها، وأن الشرطة الفرنسية قطعة أخرى، وموظفي الفندق قطعة إضافية أخرى. وأنهم جميعهم يتعاونون، عن دراية أو من دون إرادتهم، في هذه الخطة التي تنتهي بالتهام الرجل الذي خان القضية والرجال الذين وثقوا به.

وكيف أكون متأكدًا من أن الأمر لم يحدث على هذا النحو، وأنه ليست هذه هي، في نهاية المطاف، الطريقة التي سيَعرفُ بها ملايين المشاهدين قصة «ماكس»؟ وهل لديَّ القدرة لأحول دون أن تكون هذه هي النهاية؟

وطبعًا، بينما أنا أفكر في هذه المعضلات، وأبدأ بالتحسر على عجزي، وأستحضر إستراتيجيات أدبية، وأحاكم أخلاقية عالم يُنتج كثيرًا من الخداع

والآلام، فإن الشيء الوحيد المهم حقًّا هو أنني تركت «ماكس» وحيدًا.

وذلك الرجل الذي لديه بالفعل خطط من أجل «ماكس» يقترب أكثر فأكثر.

إذا كان لذلك الرجل من وجود).

•

أحد الصوتين يقول:

ـ «ماكس»، هنالك أمر واحد فقط نريد معرفته حقًّا.

ـ بالفعل (يقول الصوت الآخر) أمر واحد فقط.

ـ هل ضاجعتها يا «ماكس»؟

ـ لا أدري إلى من تشير يا سيدي.

ـ إلى أمك! إلى من تريدنا أن نشير؟ الفتاة يا «ماكس»، «بربارا». هل ضاجعتها؟

ـ لا.

ـ لماذا أنزلتها إذن في ذلك الفندق الفخم؟ لماذا دفعت لها ثمن بطاقة سفرها؟

ـ لقد قدمتُ إفادة أولية لزملائك. جئت بها من برلين لأنها تتعرض هناك للخطر.

ـ ومن أين يأتي كل هذا الاهتمام بها؟

ـ إنها خطيبة «مارتن»، وهو صديق.

ـ صديق سيصوِّب بكل تأكيد قصتك، أليس كذلك يا «ماكس»؟

ـ لو أنني أعرف أين أجده، إنني متأكد من أن... ما أعرفه أنه

يدرس الهندسة في «السوربون». ألتقي به بين حين وآخر في بار أتردد عليه، بالقرب من «مونبارناس». ألمان كثيرون يلتقون هناك من أجل...

ـ أهو منفي أيضًا؟

ـ لا. إنه يفكر في العودة.

ـ لماذا يتردد إذن على ذلك النوع من الأمكنة؟ أليس من الخطر عليه الظهور مع لاجئين؟

ـ عليكم أن توجهوا السؤال إليه.

ـ ومتى رأيته آخر مرة يا «ماكس»؟

ـ منذ نحو أسبوعين. أخبرني أنه يفكر في الذهاب إلى إيطاليا لمشاهدة بعض الأنصاب، وبعض الكنائس...

ـ مُقنع جدًّا يا «ماكس».

ـ بعد إذنك يا سيدي، في أزمنة مثل هذه الأزمنة لا يمضي أحدنا سائلًا الناس أين يعيشون. بل إنني لا أعرف لقبه.

ـ ولكنك تعرف في المقابل كثيرًا عن خطيبته، أليس كذلك؟

ـ لسنا ننتقد ذوقك في موضوع النساء.

ـ بالعكس. لو أنها كانت في خطر حقًّا يا «ماكس»، فإننا نرى أن بذل جهد لإنقاذها أمر يستحق العناء.

ـ لو أنها في خطر حقًّا، هذا هو المهم.

ـ لقد كانت في خطر. علمت ذلك منذ أيام من صديق آتٍ من ألمانيا...

ـ صديق شيوعي؟

ـ شيوعي مثلك؟

ـ أنا لستُ شيوعيًا.

ـ هنالك من يقولون إنك كذلك.

ـ هذه هي المعلومات المتوفرة لدينا يا «ماكس».

ـ إنها أكاذيب.

ـ أتتهمنا بأننا كاذبون؟

ـ تتهمنا نحن؟

ـ ليس حضرتكما، لا. بل من أخبروكما.

ـ أنت ترتاب بنا، أليس كذلك يا «ماكس»؟

ـ إنني معصوب العينين، صحيح؟

ـ ألا يروق لك أننا عصبنا عينيك؟

ـ ليست بالحركة الودودة.

ـ وهل تظن أننا أصدقاؤك؟

ـ يجب أن تكونوا كذلك، فنحن نناضل ضد العدو نفسه.

ـ مخطئ يا «ماكس».

ـ مثلما يقول زميلي، إنك تقترف خطأً، لأنكم أنتم الشيوعيين أصدقاء لـ«هتلر» الآن. أم إن الأمر ليس كذلك؟

ـ لقد قلت لكم إنني لستُ شيوعيًا، ولكن لا يبدو لي عدلًا التأكيد أن الشيوعيين أصدقاء لـ«هتلر». فمن خلال قراءاتي هم ألد أعدائه.

ـ أنت تقرأ كثيرًا، أليس كذلك يا «ماكس»؟

ـ هل قرأت صحف يوم ٢٤ أغسطس؟

ـ أقرأ الصحف كل يوم.

ـ قرأت إذن عن النخب الذي رفعه «ستالين» و«فون ريبنتروب»؟

ـ هل قرأت ما قاله الرفيق «ستالين» وهو يرفع نخبه؟

ـ لقد شرب نخبًا في صحة «هتلر» يا «ماكس».

ـ وأضاف أن «هتلر» محبوب من شعبه.

ـ من المؤسف أن صديقنا «ماكس» لم يقرأ صحف اليوم التالي، صحيح؟

ـ في اليوم التالي؟

ـ يوم ٢٥ أغسطس. لم تستطع قراءة صحف ذلك اليوم، أليس كذلك يا «ماكس»؟

ـ لست أفهم ما الذي تعنيه.

ـ ما يعنيه زميلي أنه في يوم ٢٥ أغسطس يا «ماكس» تمت مصادرة جريدة «لومانيتيه». أتعرف «لومانيتيه»، لسان حال الحزب الشيوعي؟

ـ أجل.

ـ أم إنك ترى أنه من المستحسن أن يواصل أصدقاء «هتلر» نشر دعايتهم البلشفية؟ أتراك تظن أن هذه الحرب يمكن كسبها بطوابير خامسة ومندسين، أناس يكرهون «هتلر» اليوم وفي اليوم التالي يشربون نخبًا معه؟

ـ مَن الذين تعنيهم؟ أأولئك الذين وقَّعوا قبل شهور اتفاقية ميونخ، أولئك الذين راقبوا بغير مبالاة كيف غزا «هتلر» تشيكوسلوفاكيا؟

ـ يبدو أن «ماكس» بدأ ينتقدنا.

ـ يبدو أن «ماكس» بدأ يرمي برازًا على البلاد التي قدمت له ملاذًا.

ـ يبدو أنه مما يناسب «ماكس» أكثر أن يقرأ نوعًا آخر من الصحف.

ـ لديَّ هنا نسخة من جريدة «جو سوي بارتو» التي تنشرها جماعة «العمل الفرنسي». أيروق لك أن تقرأ نسخة منها يا «ماكس»؟

ـ لا أقرأ صحفًا فاشية.

ـ قد تكون فاشية، ولكنها محبة للوطن. «العمل الفرنسي». اسم المنظمة يقول ذلك.

ـ إنهم أناس لا يعتقدون أنها حرب إمبريالية، كما يقول الشيوعيون يا «ماكس».

ـ كما يقول اليهود.

ـ اسمع يا «ماكس»، هل أنت يهودي؟

ـ لا.

ـ أكيد؟

ـ وأنا كنت أظن أن «ماكس» اسم يهودي.

ـ لستُ يهوديًا، ولكنني لو كنت كذلك لا أرى علاقة لهذا بـ...

ـ المسألة أنك رحت توجه اتهامات مجانية.

ـ مثلما يفعل اليهود في أحيان كثيرة.

ـ بالضبط. هذا لا يروق لنا، بل يمكن القول إنه يؤلمنا. أم إنه علينا أن نذكرك بمن هو المتهم هنا؟

ـ لستُ بحاجة لأن تذكروني.

ـ لسنا نحن مَن علينا أن نقدم تفسيرات. لسنا نحن مَن أدخلنا إلى بلادنا فتاة ألمانية، ومعها آلة تصوير من آخر موديل. ولسنا نحن مَن رحنا نقدم لها التعليمات هاتفيًا خلال تسع ساعات.

ـ لقد قلت لكم إنني فعلتُ ذلك كي أنقذها. وإنني علمت من صديق جاء من ألمانيا أنها معرضة للخطر، وأن «الجستابو» يراقبها.

ـ وهذا الصديق ليس في باريس أيضًا، أليس كذلك؟

ـ ولكن، لو افترضنا أن ما تقوله صحيح يا «ماكس»...

ـ إنه مجرد افتراض يا «ماكس».

ـ وحتى في هذه الحالة، ما لا يمكن فهمه حتى الآن هو لماذا كنت تريد أن تنقذ هذه الفتاة بالذات وليس أشخاصًا كثيرين آخرين يتعرضون لـ...

ـ كانت لديَّ أسبابي الخاصة.

ـ ربما ترغب في أن تشاطر أصدقاءك الجدد هذه الأسباب الخاصة جدًّا؟

ـ أم إنك لا تثق بنا؟

ـ لم أخبر بها أحدًا قطُّ.

ـ بمن في ذلك زوجتك يا «ماكس»؟

ـ لا يمكن أن أخبر بها زوجتي بصورة خاصة.

ـ زوجتك جميلة جدًّا، أليس كذلك يا «ماكس»؟ «كلاوديا»؟

ـ ولا بد أن تكون جميلة في الواقع أكثر مما في هذه الصورة.

وفجأة يُسمع صوت ثالث في الحجرة، صوت لم يُسمع حتى ذلك الحين.

ـ مرر لي هذه الصورة.

ـ كي ترى أيها الرئيس أن لـ«ماكس» فتنته، لأن هذه أيضًا جميلة جدًّا. أكبر سنًّا بقليل من الأخرى، ولكن...

ـ رجُلنا «ماكس» محق في عدم رغبته بإخبار زوجته بما يفعله مع «بربارا». أليس هذا صحيحًا أيها الرئيس؟

تمر لحظات صمت. المحققان ينتظران جواب رئيسهما. ولكن الجواب لا يأتي. عندئذ يقول أحد الصوتين:

ـ ولكنك ستخبرنا بما كنت تفعله مع الفتاة، أليس كذلك يا «ماكس»؟

ـ لماذا لا تبدأ بتوضيح ذلك لنا يا «ماكس»؟ الفتاة تقول إنها لم تسمع بكَ قطُّ قبل وصولها إلى الفندق. أما أنت في المقابل فقد صرحت بأنك تعرفها... فلنرَ: «... منذ سنوات طويلة». هذا ما قلته حرفيًّا.

ـ هي لم تكن تعرفني، أما أنا فكنت... صديقي «مارتن» أراني صورتها منذ زمن، وقال إنها خطيبته، وأنا... أنا... أنا... عرفتُها فورًا.

ـ أكنت تعرفها من قبل؟

ـ ما سأخبركم به حسَّاس وحميم جدًّا. إنه سر.

ـ ألم تقل أنت نفسك إن لنا العدو نفسه يا «ماكس»؟

ـ أرجوكم، لا تخبروها بهذا. أرجوكم. لقد تعرَّفتُ إليها في برلين. قبل وقت طويل جدًّا من مغادرتي. قبالة الجريدة التي كنت أعمل فيها. كانت تذهب إلى مدرسة... اسألوها. اسألوها هي نفسها إن لم تكن مدرستها قبالة جريدة. في كل يوم كنت أرى دخول الصغيرات وخروجهن، وكانت واحدة بينهن تشد اهتمامي بصورة

خاصة، بسبب شدة حيويتها، بسبب جمالها الوحشي. كما لو أنني أراها الآن بالذات.

ـ وتلك الطفلة كانت «بربارا»؟

ـ أجل.

ـ عن أي عام نتحدث؟

ـ منذ أكثر من عشر سنوات. عام ١٩٢٨، وربما ١٩٢٩.

ـ وكم كان عمرها آنذاك؟

ـ حوالي تسع أو عشر سنوات.

ـ أنت منحط يا «ماكس».

ـ يهودي وشيوعي، ومنحط فوق ذلك.

ـ كان حبًّا طاهرًا بالمطلق، وعن بعد بالمطلق. لم أقترب منها قطُّ. لم ألمسها. لم أكلمها. لم أتقصَّ عن عنوانها. لا شيء.

ـ لا تتصنع البراءة أمامنا يا «ماكس». لا بد أنك تخيلت مغامرة معها، أليس كذلك؟

ـ في هذا العالم العنيف، المضطرب، حيث كل شيء آخذ بالفساد دقيقة بعد أخرى، كان عزائي الوحيد رؤيتها تلعب، تقفز، وبصورة خاصة تضحك. كانت ضحكتها تعبر الشارع متجاوزة حركة السير البرلينية، متجاوزة المشاة، متجاوزة أولى الكتائب النازية التي كانت تصرخ في مسيرات صاخبة... كانت تبعث فيَّ الحيوية، تساعدني على قضاء الليل في التفكير بأنني سأراها مجددًا في صباح اليوم التالي. كانت تساعدني على تحمُّل النهار مفكرًا في أنني سأعود بعد الظهر لرؤية شعرها المتطاير مع الريح...

ـ رجُلنا «ماكس» لا يريد الاعتراف بأنه كان متهيجًا. هؤلاء الألمان...

ـ لم يكن للجنس أي تدخل في علاقتي بها. عليكم أن تفهموني! كانت الأزمة رهيبة. من يعارضون «هتلر» كانوا ينقسمون أكثر فأكثر. وفي ذلك المشهد المُحبِط، كانت هي صورة حية لأمل ـ لو تعلمون كم افتقدتها، هنا في باريس. ولهذا، عندما أراني صديقي تلك الصورة ـ لا يمكنكم أن تتخيلوا السعادة التي منحتني إياها معرفتي بأنها موجودة.

ـ ما الذي قلته يا «ماكس»؟

ـ أقلت إنها موجودة؟

ـ إنها ما زالت حية. كان يمكن للنازيين أن...

ـ وما أدراك أنها هي نفسها لم تتحول إلى نازية في تلك السنوات يا «ماكس»؟

ـ هي تقول إن لأبيها وظيفة مهمة في برلين يا «ماكس».

ـ أوَتظنون أنه يمكن لنازية أن توزع آلات تصوير على أطفال شوارع كي يصوروا أحلامهم؟

ـ إنها طريقة جيدة للتجسس على مواطنيها يا «ماكس».

ـ ثم إنك لم تكن تعرف ما هي مهنتها، ولا مَن هم الأطفال، حين بدأت تخطط لإحضارها إلى باريس.

ـ لم أكن بحاجة لمعرفة ذلك.

ـ لأنك كنت تشتهيها يا «ماكس». هيا. يمكنك أن تخبرنا بالحقيقة كلها.

ـ أجل. كنت أشتهيها.

ـ رجُلنا «ماكس» بدأ يخبرنا بالحقيقة. كل ذلك الحديث عن «الجستابو» لم يكن إلا تلفيقًا، أليس كذلك؟

ـ إنها الحقيقة، فهي معرضة للخطر حقًّا.

ـ هيا يا «ماكس». تقول هذا لأنك لا تريد أن نعيدها إلى ألمانيا. إذا كنا نستطيع إنقاذها...

ـ ومن أين جئت بالنقود يا «ماكس»؟

ـ ميراث تلقيته منذ أيام. لقد مات أحد إخوتي.

ـ ومَن أحضر لك النقود يا «ماكس»؟

ـ الصديق نفسه الذي...

ـ طبعًا، طبعًا. الصديق نفسه الذي أخبرك أنهم يبحثون عنها لقتلها. وقد رجع إلى ألمانيا، صحيح؟

ـ أجل.

ـ وأنفقت النقود كلها عليها؟

ـ وعلى الرغم من هذا الاستثمار كله يا «ماكس»، لم تتوصل إلى مضاجعتها؟

ـ لا.

ـ ولكن لا بد أنك قد استمنيت على الأقل في أثناء حديثك معها في الهاتف.

ـ لا.

ـ لقد كانت تسع ساعات. ما الذي كنت تفعله وأنت تتحدث في الهاتف، فضلًا عن نقلك إليها المعلومات التي ستحملها هي بدورها إلى أصدقائك النازيين؟

ـ أنتم محترفون.

ـ شكرًا.

ـ وبالتالي تعرفون أن الألمان لن يرسلوا شخصًا مثلها للاتصال مع منفي يـ...

ـ مع شيوعي يدَّعي أنه منفي.

ـ ستقولون لي الآن إنكم لا تصدقون كذلك أنني منفي؟

ـ لماذا غادرت ألمانيا يا «ماكس»؟

ـ أجل يا «ماكس»، هذا أمر يحيرني. دعني أقل لك إنني لن أغادر فرنسا أبدًا. أنا لا أستطيع العيش بعيدًا عن البلاد التي ولدت فيها.

ـ كل ما هنالك أن الشيوعيين واليهود لا يؤمنون بالوطن. ليس لهم وطن.

ـ ألهذا السبب غادرت ألمانيا يا «ماكس»؟

ـ غادرتها لأنهم كانوا سيقتلونني. مثلما كنتم ستغادرون لو أن...

ـ نحن لسنا جبناء.

ـ نحن لا نغادر الوطن.

ـ وماذا لو غزا الألمان فرنسا؟

ـ انهزاميون، أترى ما يقوله لك؟ فضلًا عن أنه يهودي وبلشفي. هؤلاء الأشخاص جميعهم متشابهون.

ـ معك حق.

ـ نريدك أن تعلم يا «ماكس» أن النازيين لن يدخلوا فرنسا. لن يلمسوا سنتيمترًا واحدًا من بلادنا. وهل تدري لماذا؟

ـ لأننا هنا، نحرس، نضمن بقاء الوطن نظيفًا وسليمًا، بلا محرضين، بلا جواسيس، بلا أجانب يأتوننا بالمشاكل.

ـ ولهذا السبب، أتدري ما الذي سنفعله بك يا «ماكس»؟

ـ ستطلقون سراحي.

ـ لديك حس عالٍ بالسخرية يا «ماكس».

ـ «ماكس»، «ماكس». أنت تعلم أننا سنُبعدك إلى ألمانيا. عليك أن تعلم أن هذا ما سنفعله بك.

ـ أيها السادة، أظن أنكم تحكمون عليَّ بالموت.

ـ هاأنتذا تتحول إلى «ميلودرامي». مع أنه ليس لديك ما تخشاه، سيستقبلك «هتلر» بذراعين مفتوحتين. فهو الآن صديق حميم لـ«ستالين».

ـ وهي؟ ماذا ستفعلون بها؟

ـ سوف نُبعدها أيضًا. كي ترافقك.

ـ هي لا. افعلوا بي ذلك إن أردتم، ولكن ليس بها...

ـ إنها هي من تريد العودة يا «ماكس».

ـ وإذا ما تمكنتُ من إقناعها بالـ...؟

ـ هي تقول إنها لا تريد مزيدًا من التكلم معك.

ـ مع أنها، ربما، عند عودتكما معًا إلى ألمانيا يا «ماكس»، ربما تلين قليلًا.

ـ أرجوكم، لا تبعدوها.

ـ آه «ماكس»، «ماكس». علينا أن ننجز واجبنا. لا يمكننا أن نجازف بأن يقوم أناس مثلكم بنقل معلومات إلى العدو. فبالمخابرات

سيتم كسب أو خسارة الحرب القادمة. لقد أعلناها، هل تعرف ذلك؟ في الجمعية العامة. حتى إن الشيوعيين صوتوا بنعم.

ـ ولكنهم لن يصوتوا لوقت طويل. فقريبًا، قريبًا جدًّا، سنضعهم خارج القانون يا «ماكس». سنضربهم بشدة يا «ماكس»، وعندما يحدث ذلك ستهنئ نفسك بعودتك سالمًا ومعافى إلى وطنك النازي.

ـ أرى أن صديقنا «ماكس» غير ممتن جدًّا.

ـ ونحن من كنا نظن أننا سنُسعدك.

ـ لأن الخيار الآخر كان إعدامكما، أنت وهي، باعتباركما جاسوسين.

ـ ولكن ربما لا يبدي رجُلنا «ماكس» الامتنان لأنه لا يعلم أننا نخبئ له هدية.

ـ هدية عيد ميلاد. لأن عيد ميلادك كان يوم أمس يا «ماكس»، ولم يحتفل لك به أحد.

ـ كي لا يقول أحد إننا لسنا طيبي القلب.

ـ كي لا يشكو أحد من حُسن ضيافتنا.

ـ إننا نفكر، بعد أن انتهت أمورك بصورة سيئة مع الفتاة...

ـ بما أنك لم تضاجعها مضاجعة جيدة...

ـ فكرنا في أنه سيسعدك أن نُحضر لك زوجتك.

ـ إنها تدعى «كلاوديا»، صحيح؟

ـ لأنه لا يروق لنا تفريق شمل العائلات. فعندما يسافر رجل الأسرة، نحب أن ترافقه امرأته.

ـ هل ذهبتم لإحضار «كلاوديا»؟

ـ ليس بعد يا «ماكس». ننتظر موافقة رئيسنا كي نذهب لإحضار هديتك، كي تتمكن من السفر مع رفقة، معها ومع الفتاة طبعًا، للعودة إلى بلادك. إننا نحتاج إلى موافقة رئيسنا وحسب.

يسود صمت طويل ثم يُسمع بعد ذلك الصوت الآخر، صوت الرجل الثالث، صوت الرئيس، الرجل الذي ظل محتفظًا بالصمت حتى الآن.

يقول الصوت:

ـ ربما لن يكون ذلك ضروريًا. ربما لدى «ماكس» شيء آخر يقوله لنا.

خلال لحظات طويلة لا ينطق أي من الرجال كلمة واحدة، في انتظار رد «ماكس».

ـ ربما يمكننا الوصول إلى اتفاق.

ـ ربما يا «ماكس». ولكن قبل التفاوض على اتفاق، عليك أن تخبرنا بالحقيقة. ما رأيك؟

ـ أجل، ربما أزفت الساعة التي أخبركم فيها بالحقيقة.

ـ ستكون بداية جيدة يا «ماكس».

ـ وما الذي سأحصل عليه مقابل تعاوني...؟

ـ ربما يمكننا أن نقدم معروفًا.

ـ هنالك معروف وحيد يهمني.

ـ إنقاذ الفتاة. وربما إنقاذ زوجتك كذلك.

ـ أجل.

ـ لا شيء سوى هذا؟

ـ شيء آخر إضافي.

يقول صوت من يدعوه الشرطيان رئيسهما:

ـ يمكنني تخيله. ربما تحب رؤية الفتاة لآخر مرة. ربما تحب البقاء معها ساعة على انفراد قبل أن نبعدك إلى ألمانيا. أيروق لك هذا يا «ماكس»؟

يقول صوت الرجل الذي يدعونه «ماكس»:

ـ أجل.

(الآن ونحن نصل إلى النهاية. الآن حيث تبدأ في الظهور من الظلال هوية ذلك الرجل الذي اهتم بـ«ماكس» منذ البدء. الآن وقد أخذوا «ماكس» ولم يعد بإمكاني متابعته. الآن وقد أغلق «ماكس» أفكاره عني لأنني غادرتُه، بدأتْ تخامرني الشكوك حول السؤال الذي كنت أطرحه.

لقد تساءلتُ مرة بعد أخرى كيف يمكن لـ«ماكس» أن ينقذ «سوزانا»؟

ولكن، من هي «سوزانا»؟ أمن الممكن حقًّا أنها كانت طيلة ذلك الوقت عضوًا في المقاومة؟ لماذا لم أبحث عن طريق إلى ذهنها، إلى قلبها، إلى ماضيها؟ لماذا تقبَّلتُ التعرف إليها من خلال عينَي «ماكس» وحسب؟ لماذا افترضتُ آليًّا أن هذه المرأة بحاجة لمن ينقذها؟ بل لماذا لم أفترض أنها هي نفسها قادرة تمامًا على التوصل إلى ما تحتاج إليه؟

كان لا بد للسؤال الحقيقي من أن يكون: كيف يمكن لـ«سوزانا» أن تنقذ نفسها؟

إنه سؤال بدأت أصوغه بعد فوات الأوان. لم يعد هنالك متسع من الوقت للبحث عن «سوزانا». فعندما فصلوا بينهما في مركز الشرطة، اخترتُ متابعة «ماكس»، مثلما اخترت من قبل، منذ البدء، الاستماع إلى صوته، ولم أصل إلى صوتها. وهكذا لم أعد أعرف الآن أين أخذوها.

وهذا هو السؤال نفسه الذي لا بد أن «ماكس» يتساءله في هذه اللحظة بالذات.

ولكنني لم أعد قادرًا كذلك على الوصول إليه الآن.

أعرف فقط أنه في مكان مظلم، وأنه يتكلم هامسًا، وأنه يتحرك ببطء كي لا يتمكن أحد من رؤيته.

إنه يختبئ.

لا يثق بأحد.

لديه قصة أخيرة يرويها، ولكن لا وجود لمن يسمعه).

- إنهم ينتظرونكِ فوق.

يقولها بواب البناية وهو ينظر إلى «كلاوديا» كما لو أنه لا وجود لها، ينظر إلى «كلاوديا» مثلما هي بالفعل: امرأة ليس لها مكان تهرب إليه، امرأة ليس لها من يحميها في العالم، امرأة جميع أصدقائها مسجونون، أو إنهم في مكان سريٍّ، أو هاربون.

إنها نظرة تبدأ بتقدير المبلغ النقدي الذي يمكن له أن يتقاضاه من مستأجرٍ جديد.

ومع ذلك، بينما هي تصعد الدرج ببطء، تسمح «كلاوديا» لنفسها بتجاهل نظرة الجشع تلك، تسمح لنفسها بالتظاهر بأن من ينتظرها هناك فوق ليس الشرطة، وإنما «ماكس». يجب أن يكون «ماكس» قد رجع إلى البيت لإنجاز وعده، ذلك الوعد بحمايتها في حالة حدوث أي طارئ.

إنه أمل عبثي، ولكنه يلح عليها. حتى حين وجدت الباب مواربًا وينبئ بذلك الحضور الغريب في بيتها. وأخيرًا ترى ذلك الرجل الذي هو شرطي من دون أدنى شك، جالسًا إلى منضدة المطبخ كما لو أنه سيد المكان. وحتى في هذه اللحظة لا تفقد «كلاوديا»

الأمل بأنه سيتم تسوية كل شيء، لأن الرجل ينهض الآن بمجاملة ويبتسم لها. الرجل لا يقول شيئًا للحظات. وترى هي في يد الشرطي صورتها التي يحتفظ بها «ماكس» دومًا في محفظة جيبه.

ـ «كلاوديا».

ـ أجل، وحضرتك من...؟

ينتظر الرجل هنيهة أخرى وهو ينظر إليها بزخم.

يقول أخيرًا، من دون أن يمد يده:

ـ «ميشال برنار»، من «الأمن». جئت مبعوثًا من زوجكِ.

ـ هل «ماكس»...؟

ـ اجلسي يا «كلاوديا». سأدعوكِ «كلاوديا» إذا لم يكن هذا يضايقكِ. لديَّ رسالة يجب أن أوصلها إليكِ.

ـ من «ماكس»؟

ـ اجلسي.

تجلس «كلاوديا».

ـ أريد البدء بالتأكيد لكِ أنني لن أعتقلكِ. لستُ هنا من أجل ذلك. أريد التأكيد لكِ أنه لا نيَّة لديَّ في التسبب لكِ بأي أذى.

«كلاوديا» لا تقول شيئًا.

ـ أنتِ تفكرين من دون شك بأنني جئت لهذا، صحيح؟ لاعتقالكِ.

ـ في الأيام الأخيرة اعتقلتم جميع مواطنيَّ اللاجئين تقريبًا.

ـ جميعهم تقريبًا، بالفعل.

ـ ولا أرى سببًا لأن أكون أنا استثناءً.

ـ آه، ولكنكِ كذلك. إنكِ كذلك.

ـ لا أجد سببًا.

ـ وإذا قلتُ لكِ إن السبب هو زوجكِ؟

ـ ماذا حدث لـ«ماكس»؟ أين هو؟

ـ قبل أن أبدأ آمل أن تدركي أن ما سأخبرك به يجب أن يظل في سرية صارمة.

ـ منذ سنوات ونحن نناضل ضد دكتاتورية. ومن غير المقبول ألا تثقوا بنا.

ـ إننا نثق بكم. ولهذا السبب بالتحديد لن يجري اعتقال حضرتكِ، خلافًا لكثيرين من مواطنيكِ.

ـ أين «ماكس»؟

ـ هو طلب مني أن أشرح لكِ...

ـ أين هو؟

ـ في الطريق إلى ألمانيا.

ـ غير ممكن.

ـ مُبعدًا من قبل حكومتنا.

ـ هل أعدتموه إلى...؟

ـ هنالك اتهامات خطيرة ضده.

ـ أي نوع من الاتهامات هي؟

ـ تجسس.

ـ هذا سخيف. لا يمكن لعاقل أن يصدق أن...

ـ الحقيقة أنني أنا، على الأقل، لا أصدق ذلك.

ـ هل حضرتك من استجوبته؟

ـ اثنان من زملائي استجوباه. ولكنني كنتُ حاضرًا.

ـ هل قاموا...؟ هل مارسوا عليه...؟

ـ لم يصب بأدنى خدش يا «كلاوديا». بعض الأسئلة فقط، وقليل من الضغط، من أجل التوصل إلى نتائج.

ـ أي نتائج؟

ـ أن يذهب زوجكِ طوعًا إلى ألمانيا، ليعمل لمصلحتنا.

ـ ولماذا تظنون أنه قد يكون مفيدًا لكم؟

ـ لـ«ماكس» علاقاته في برلين. علاقات يمكن لها أن تكون مفيدة جدًّا لنا.

ـ وهل تعتقدون أن...؟

ـ أجل.

ـ هذا جنون! سيعتقله «الجستابو» في رفة عين. حياته في برلين لا تساوي أدنى...

ـ هذا ما قاله هو في البدء. ولكننا كنا نرى العكس. طبعًا سيعتقلونه فورًا إذا ما راح ينشر أفكاره حول النظام النازي، وربما سيعدمونه أيضًا. ولكن هذه اللحظة بالغة الخصوصية بالنسبة إلى ألمانيا، إنه زمن مضطرب. والآن، بعد أن وقّع «هتلر» و«ستالين» الاتفاق وصارا يتعاملان كصديقين، لن يبدو غريبًا أن يقرر منفيٌّ ألماني متعاطف مع البلاشفة وضع نفسه في خدمة وطنه في حرب ضد البلدان الرأسمالية، أليس كذلك؟

ـ لا يمكن لـ«ماكس» أن...

ـ إذا كان يريد البقاء حيًّا، سيفعل ذلك. تصوري: مُبعد ألماني، مطرود من فرنسا بتهمة التجسس... أنا أظن أنهم سيستقبلونه بالأحضان.

ـ ولماذا سيصدقه النازيون؟

ـ أنتِ تعترفين أن زوجكِ رجل... مقنع.

ـ لست أدري ما الذي تشير إليه.

ـ إنه رجل يصدقه الآخرون دومًا. رجل يبدو على الدوام كأنه يقول الحقيقة، حتى عندما يضبطه أحدنا في واحدة من أشد الأكاذيب غرابة. قبل أن نتمكن من استخلاص الحقيقة منه، خلال الاستجواب، أدخلَنا في متاهة قصص أكثر من معقولة، مُقنعة بالكامل. أتدركين ما الذي أحدثكِ عنه؟

ـ أجل.

ـ إذا كان قادرًا على عمل ذلك معنا، ومع حضرتكِ، أفترض أنه...

ـ لم يكذب عليَّ قطُّ!

ـ بالضبط. هذا هو ما نريد أن يفكر فيه النازيون. ولن نخسر شيئًا بقبول عرضه. لأنه إذا أخطأ، سيكون هو نفسه المتضرر الأول. وبالنظر إلى القليل الذي طلبه مقابل ذلك، قررنا...

ـ ماذا طلب؟

ـ أمرين اثنين. لا شيء مهم في الواقع. الأمر الأول: ألا نُبعدكِ أنتِ يا «كلاوديا»، أن نترككِ آمنة هنا في باريس. وهذا أمر يناسبنا في الحقيقة، لأن بقاءكِ في بلادنا يضمن لنا مواصلته التعاون معنا.

ـ كيف أعرف أن ما تقوله حضرتك هو الحقيقة؟ كيف أعرف أنك الشخص الذي تدعيه؟

ـ لدينا شاهد يا «كلاوديا»، إذا كنت تريدين من...

ـ مَن هو الشاهد؟

ـ إنه يرتبط بالأمر الثاني الذي طلبه «ماكس». هنالك شخص آخر أراد «ماكس» إنقاذه من الإبعاد.

ـ مَن يكون؟ عمَّن تتكلم؟

ـ إذا ما أطللتِ على غرفة نومكِ يا «كلاوديا»، ستجدين هناك فتاة نائمة تدعى «بربارا».

ـ لا أعرف أي واحدة تدعى «بربارا». لا أحد بهذا الاسم يعيش هنا.

ـ إنها ابنة زوجكِ.

ـ لا أبناء لنا.

ـ قلتُ ابنة زوجكِ.

ـ ليس لـ«ماكس» ابنة.

ـ هذا الأمر بالتحديد أخفاه «ماكس» عنكِ وهو يطلب منكِ الصفح لأنه لم يعترف لكِ به قطُّ. لم يكن يريد أن يسبب لكِ آلامًا. ولكن هذه الفتاة هي ثمرة حب عاشه قبل أن يتعرف إليك يا «كلاوديا». وقد طلب مني «ماكس» أن أقول لكِ... إنكِ تعرفين كيف تتفهمين. لقد كان شابًّا يافعًا. سبعة عشر عامًا كما يبدو، و...

ـ وهل كان على اتصال بها طوال هذه السنوات كلها؟

ـ آه، لا. ولكن منذ أشهر، تعرف على طالب ألماني شاب هنا، في أحد المقاهي، تحدث إليه الشاب عن خطيبته، وأراه صورة لها، فتعرف فيها «ماكس» فورًا على ابنته. القصة طويلة. ولكن بإيجاز، وبعد كثير من الجهود، تمكن من إحضارها إلى باريس.

ـ لماذا؟

ـ يقول إنه فعل ذلك لإنقاذها. ولكن وقعت مشكلة صغيرة. فعندما اعتقلناهما أصرت على أنها لا تريد البقاء هنا.

ـ تريد الرجوع إلى ألمانيا؟

ـ أجل.

ـ وكيف أقنعتموها بأن تبقى؟

ـ لم يقنعها أحد. ما فعلناه هو ما طلبه «ماكس» منا وحسب: حين أبعدناه، رفضنا تسليمها إليه. لم يكن الأمر سهلًا. كان لا بد من تخديرها وإخراجها بهذه الحال من مركز الشرطة.

ـ وعندما تستيقظ غدًا، كيف ستمنعونها من العودة إلى برلين؟

ـ لم يعد بإمكانها ذلك. حين أبعدنا «ماكس»، أخبرنا السلطات بأن لدينا معلومات لا يرقى إليها الشك بأن عودة هذه الفتاة إلى برلين يمكن أن تعرض حياتها للخطر، وأطلعنا السلطات أيضًا على أننا تمكنا، بفضلها، من اعتقال عميلين ألمانيين يشتبه بأنهما اغتالا قبل نحو أسبوعين في باريس مواطنة فرنسية تدعى «أنطوانيت سيفر».

ـ أوجدتم قتلة «أنطوانيت»؟ وهذه الفتاة هي مَن قدَّمت لكم الأثر لاعتقالهما؟

ـ بل كان زوجكِ. فقد كان «ماكس» يعرف مكانهما وهويتهما. ها أنت ترين كيف بدأ تعاونه معنا.

ـ لقد قال لي «ماكس» إنه يظن أن القتلة من الشرطة الفرنسية.

ـ قال لكِ ذلك كي لا يخيفكِ بكل تأكيد. إنهما عميلان ألمانيان.

ـ وهذه الفتاة المسكينة... النازيون يظنون أنها المسؤولة عن ذلك؟

ـ الصحيح هو ما يظن الناس أنه صحيح يا «كلاوديا». وهذه

المناورة تضمن أن تظن الحكومة الألمانية، أيًا تكن الحقيقة، أن هذه الشابة هي عدوها. وهذا ما أراده «ماكس»: أن تكون ابنته في منجى. مثل حضرتكِ.

ـ وما رأيها هي في هذا كله؟

ـ إنها لا تعرف هذا كله بعد. ولا أظن أنها ستكون سعيدة جدًّا بمعرفته.

ـ وماذا سأقول لها عندما تستيقظ؟

ـ أولًا وأساسًا: لا تقولي لها إن «ماكس» هو أبوها. هي لا تعرف ذلك ويفضل ألا تعرفه أبدًا، كي لا تشعر بأنها مذنبة في جعل أبيها يضحي بنفسه من أجلها. لقد ودَّعها من دون أن يقول لها شيئًا. منحناهما وقتًا على انفراد كي يتمكنا... وكما ترين. لقد عهد بها زوجكِ إليكِ.

ـ ولماذا أنا؟

ـ لقد قال إنكِ ستفهمين الأمر.

ـ أقال هذا؟ أقال إنني سأتفهم الأمر؟

ـ أجل. قال إنه لا وجود لشخص آخر، وإنكِ ستفهمين الأمر.

ـ وكيف سأتواصل معه؟

ـ سأكون أنا صلة الوصل بينكما.

ـ أأنت من ستأتيني برسائل منه؟

ـ كلما كان ذلك ممكنًا.

ـ وماذا لو كسب النازيون الحرب؟

ـ لن يحدث ذلك يا «كلاوديا».

ـ ولكن إذا خسرتم الحرب...

ـ سأتولى أمركما بنفسي. لقد وعدتُ زوجكِ بمساعدتكما على الهرب. ولكن لن تكون هنالك حاجة لذلك.

ـ لماذا تقوم بعمل هذا؟

ـ أي عمل؟

ـ هذا. قيامك بدور المراسل.

ـ إنه جزء مما رتبه «ماكس».

ـ ليس صحيحًا. ليس هناك مَن يتطوع مثلما تفعل حضرتك ليتولى دور الـ... لا أحد. وكل هذه الجهود التي تبذلها لإنقاذي...

ـ هنالك أناس كثيرون مثلك أسعى لإنقاذهم يا «كلاوديا».

ـ ألمان؟

ـ لا تسأليني أكثر.

ـ سأواصل الأسئلة إلى أن تخبرني بسبب هذا القلق غير العادي...

ـ زوجك قال لي إنكِ حالة خاصة. وإنه يمكنكِ أن تقرئي أفكار الناس. ألا تستطيعين قراءة أفكاري؟

ـ «ماكس» يبالغ دومًا. ومن دون الذهاب بعيدًا، لم أتكهن قطُّ بأن له ابنة. وما زلتُ أجد صعوبة في تصديق ذلك.

ـ جميعنا لدينا سر مكتوم.

ـ وما سرك المكتوم؟

ـ يجب أن أذهب يا «كلاوديا».

ـ متى سأراك ثانية؟

ـ فور معرفتي أخبارًا عن «ماكس».

ـ أأنت المكلف به؟

ـ لا توجهي إليَّ مزيدًا من الأسئلة.

ـ هل «ماكس» تحت سلطتك؟

ـ «كلاوديا»، أرجوكِ.

ـ إنني بحاجة لأن أعرف! بحاجة لأن أفهم لماذا تفعل حضرتك هذا؟ لماذا تريد إنقاذنا؟ أحتاج أن أعرف إن كان بإمكاني الوثوق بك.

ـ يمكنكِ الوثوق بي.

ـ وحضرتك بالمقابل، ألا يمكنك الوثوق بي؟

ـ ليست هذه هي اللحظة المناسبة للتحدث في هذا الأمر.

ـ ربما هي اللحظة المناسبة بالضبط للبدء بذلك.

ـ سأمر من هنا الأسبوع القادم.

ـ لا، لا يمكنك الذهاب قبل أن...

ـ سآتيكِ بأخبار عن «ماكس».

تسمح هي بمرور برهة لا بأس بها قبل أن تجيب، ناظرة في أول الأمر إلى عينيه، كما لو أنها تأخذ مقاسه.

ـ افعل ما عليك فعله.

ـ أيمكنني أن أطلب منكِ شيئًا آخر قبل أن أذهب؟

ـ ماذا؟

ـ إن كان بإمكاننا التعامل من دون كلفة...

فترد عليه بلا أدنى تردد:

ـ كما تشاء.

يلتفت هو وينظر إليها من عند عتبة البيت.

ـ أمر آخر «كلاوديا». هل يمكنني إخبار «ماكس» بأنكِ ستتولين رعاية هذه الفتاة؟

تقول «كلاوديا»:

ـ كما لو أنها ابنتي تمامًا.

(وهل هذا هو كل شيء؟
أهكذا تنتهي هذه القصة؟
من دون أي كلمة أخرى من «ماكس»؟ كما لو أن صوته قد ابتلعته ظلمة الليل؟
وإذا كنا غير قادرين على سماع ما يقوله، أي احتمالات لدينا لنتخيل ملايين الموتى الآخرين الذين ضاعوا، أي إمكانية لدينا للاقتراب من الأحياء، ملايين الكائنات الحية الغامضة التي تعاني بجانبنا البعيد، بصمت، وربما هم يحلمون بشيء مختلف، بشيء أفضل من هذا الذي يعيشونه، في هذه اللحظة بالذات؟
كيف نتواصل مع من لا يخلِّفون أثرًا وراءهم؟
أهكذا تنتهي كل قصة؟ مثلما تنتهي هذه؟
بـ«ماكس» ميت أو على وشك الموت، كضحية في أفضل الحالات، وفي أسوئها كخائن؟
أم إن هنالك طريقة يمكنني بها الحفاظ على وفائي له، ونحن نصل الآن إلى الخاتمة؟

أما زال بالإمكان التواصل معه لآخر مرة، وسماع الكلمات الأخيرة لهذا الرجل الذي مات منذ سنوات طويلة، في هذه البلاد التي لا يتكلم لغتها؟ أأكون قادرًا على وصف الساعة الأخيرة، والكلمات التي دمدم بها في تلك الساعة الأخيرة ذلك الرجل الذي استحوذ على ثقتي ذات يوم؟

ولكن مَن الذي يمكنه التأكيد أن «ماكس»، مثلما سمعناه الآن، فيما وراء الزمان والموت واللغة، لم يستدعنا من لحظة سابقة على ولادتنا نفسها؟ مَن يمكنه التأكيد بصورة يقينية أن «ماكس» لم يوجد بالطريقة التي حلمناه بها؟

مَن يمكنه أن يُقسم أن أخانا «ماكس» لم يتكلم هذه الكلمات الأخيرة كي نسمعه في الليل الذي يصبح كل يوم، كل ساعة، كل لحظة، أشد عمقًا؟).

مساء الخير يا «سوزانا».

عليكِ أن تعذريني لكسري وعدي لكِ، ولأنني أجبرتكِ على المجيء إلى أحلامي من جديد، بعد كل هذا الزمن.

أؤكد لكِ أنها ستكون المرة الأخيرة.

لا تردين. كنت أخمن أنك لن تردي عليَّ.

ستدركين أن صمتك يؤلمني. لقد كنتِ أنتِ بالطبع من شرحتِ لي، منذ سنوات طويلة، في زيارتكِ الأولى، أن فهم شيء لا يعني بالضرورة أنه يكون أقل إيلامًا.

لقد أرسلت إليكِ هذا في رسالة أرسلتُها عبر ذلك المدعو «ميشال برنار»، ولكنني أريدكِ أن تعلمي به مني مباشرة: لم أخنكِ يا «سوزانا». هذه هي الرواية التي يمكن أن ينتهي أي شخص يسمع هذه القصة إلى تصديقها. ولكن كل ما فعلته، ويجب أن تصدقيني في هذا، إنما فعلته من أجل إنقاذكِ. لو أنني تركتكِ ترجعين إلى ألمانيا، لو لم أتوصل إلى ترتيب مع الفرنسيين كي يمنعوكِ من الصعود إلى القطار، لكنتِ ميتة الآن. أو لكنتِ مثلنا، تنتظرين الموت.

أفضِّل ألا أقول لكِ كيف كان يمكن لسادة الألم هؤلاء أن يعاملوا جسدك البديع الذي استطعتُ التعرف إليه خلال تلك الساعات القليلة التي صارت تبدو لي الآن كما لو أنها لم توجد قطُّ، في تلك الزنزانة بباريس حيث حبسونا كي أتمكن من وداعكِ. وشيء أكثر أهمية من هذا: ما كانت ابنتكِ ستولد. أجل، أعرف أن لكِ ابنة، وأن اسمها «فكتوريا». أخبرني بذلك «مارتن» حين جاؤوا به إلى هنا، أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. لهذا أحتاج إلى أن تأتي، ولو ضد مشيئتك، للمرة الأخيرة.

أعرف أن هذا ليس اتفاقنا. أعرف أنني وعدتكِ، إذا ما منحتني تلك الليلة الوحيدة، سأتركك حرة إلى الأبد، ولن أعود لطلب أي شيء منك أبدًا، بل لن أدعوكِ مرة أخرى إلى أحلامي. وأظن أن هذا الأمر الأخير هو الذي أقنعكِ، في ظلمة زنزانتنا المطلقة بفرنسا سألتِني، وكنتِ ظلًّا من خلال الظلال: «هل ستكون مستعدًّا لذلك حقًّا؟ أن تضحي بكل زياراتي إلى أحلامك المقبلة جميعها؟»

كلها، أجبتُكِ. ولكن ربما لن تكون التضحية كبيرة جدًّا. لم يبقَ لي إلا قليل في الحياة.

أترين كيف أنني كنتُ على حق.

أمسكي يدي يا «سوزانا»، أمسكي هذه اليد التي قُدتِها في تلك الليلة إلى أزرار بلوزتكِ، واتبعيني. ليس لدينا متسع من الوقت. لا أدري إلى متى أستطيع البقاء نائمًا. أطلي على الجانب الآخر لشرفة عينيَّ المغمضتين وسترينني هناك، في ركن من القبو حيث حبسوا أجسادي الثلاثة. إنني النائم الوحيد. المحكومون الآخرون

بالإعدام، وخصوصًا «مارتن»، لا يستطيعون أن يصدقوا أنني أريد أو أستطيع النوم بينما لم يبق سوى وقت قصير جدًّا على مجيء الفجر، مجيء اللحظة التي سنذرع فيها بخطوات بطيئة هذا الممر ونواجه الفصيلة التي ستنفذ فينا حكم الإعدام. أترين «مارتن»؟ أترين صورة «فكتوريا» في يده؟ إنه يظن الآن أنني لا أراه. انظري كيف يبتسم لتلك الصورة التي أرسلتِها إليه أنتِ نفسك. اسمعي كيف تتمتم فيه كل تلك الأشياء التي يقولها رجل لابنة لم يرَ ولادتها ولن يراها تكبر أيضًا. انظري كيف يلتهم الصورة كما لو أنه يريد استنساخ هيئة تلك الطفلة في عينيه، كما لو أنه يريد التأكد من أن الطفلة سترافقه عندما تحين لحظة مواجهته لفصيلة الإعدام، على أمل أن تمنحه قوة حين يأتون في طلبنا.

من أجلها اضطررتُ إلى التواصل معكِ. إنني بحاجة لأن أعرف يا «سوزانا» إن كان حبَلكِ بـ«فكتوريا» قد تم في تلك الليلة بفرنسا، أم إنها كانت في بطنكِ حين تكرَّمتِ بعدم ترك رجل أحبكِ طيلة خمسة وعشرين عامًا يموت من دون أن يعرفكِ، من دون أن يحتفي بكِ.

أعرف أنها ولدت ضئيلة، ضئيلة جدًّا إلى حد كانت على وشك عدم النجاة، حسب ما قاله «مارتن»، حين كان عليكما الهروب على عَجَل عند سقوط باريس. أعرف أنها ولدت ضئيلة جدًّا إلى حد يمكن معه أن تكون خديجًا، يمكن أن تكون قد ولدت قبل اكتمالها، مثل أشياء كثيرة أخرى في حياتي. أعرفُ أنكِ سميتها «فكتوريا»، ويعجبني هذا الاسم، يعجبني أنكِ سميتها هكذا، من أجل أن تشيري

بالضبط إلى إيمانكِ بالمستقبل، في تلك اللحظة التي كانت الهزيمة تحيط بكل ما حولكِ وكان النازيون يتقدمون نحو باريس. يروق لي التفكير في أننا سنكسب هذه الحرب في النهاية، وأنه ربما يكون بإمكان رجال آخرين ونساء أخريات أن يقيموا، في المستقبل، عالمًا لا وجود فيه أبدًا لأقبية مثل هذا القبو، وأسوار كالتي تحتجزنا الآن. لأنني لا أستطيع التخلي عن التساؤل كم سيكون كل شيء مختلفًا لو أننا ولدنا في عصر آخر، عصر بلا حروب، ولا بؤس، ولا خوف، ولا معسكرات اعتقال. لو أننا ولدنا بعد ثلاثين عامًا وفي بلد آخر. أو التساؤل إن كان لا مفر لهذا المشهد الأخير بيننا من أن يتكرر مرة بعد أخرى على امتداد العصور، في كل مرة يحلم فيها شخص مثلي بواحدة مثلكِ. أو التساؤل إن كانت نكبتنا ليست محددة بالعصر الذي ولدنا فيه، وإنما بالأجساد التي سكناها في هذا العصر. أي مصير ينتظرنا؟ أي سلطة نمتلك؟ وكيف هو استعدادنا لاستخدام هذه السلطة؟

لو أنني ولدت فرنسيًّا، مثل «ميشال برنار»، ولو أنني كنتُ مثله ضابطًا كبيرًا في المخابرات الفرنسية، ولو أنني التقيت بصورة لكِ بينما أنا أستجوب مقاومًا ألمانيًّا، مثلما التقى هو بصورة «كلاوديا»، لكانت هذه القصة مختلفة. ولكنتُ منهمكًا الآن في إغواء تلك المرأة يومًا إثر يوم. لكنتُ وفرت حماية لها ولـ«بربارا». ولكنتُ رتبت أمر الهروب من باريس عندما وصل إليها النازيون. ولكنتُ الآن معكما في جنوبي فرنسا، منتظرًا الإبحار إلى الجانب الآخر من المحيط. لا أدري إن كان «ميشال برنار» قد حلم بـ«كلاوديا»

من قبل، مثلما حلمت أنا بكِ، أو إن كان قد أُغرم بها فور رؤيته صورتها خلال الاستجواب. لا أدري إن كان قد صادفها من قبل، ذات يوم باريسي بديع، وظل يراقبنا منذ ذلك الحين منتظرًا فرصته، وخطط لكل شيء كي يبقى معها بصورة نظيفة، بما في ذلك اعتقالنا في باريس وإبعادي إلى برلين، بما في ذلك موت «أنطوانيت». ومن يدري إن كانت كذلك خيانة أعضاء منظمتنا السريين، أو إن هذا كله ليس إلا حكاية أخرى من حكايات شهرزاد أسلي نفسي بها في ظلمة هذا القبو حيث يحتجزوننا منذ شهور. المؤكد أن «ميشال برنار» معكم الآن، لأنه يحب «كلاوديا»، ولهذا السبب بالذات سيحميكِ أنتِ وابنتكِ، وعندما يصل بعد قليل خبر موتي سيتزوج ممن كانت زوجتي. أما أنا في المقابل، فكان نصيبي حلمًا وحسب. مثل معظم البشرية. كان نصيبي هذا الحلم الذي أتكلم إليكِ فيه، هذا الحلم الذي لا تردين فيه عليَّ، هذا الحلم الذي أقارن فيه فمكِ الذي لا يبتسم لي بفم «فكتوريا» الباسم في الصورة.

لو أنني استطعتُ أن أميز يقين فمي بفمها عندما أراني «مارتن» الصورة، عينيَّ بعينيها، أي ملمح يشير إلى أنني أنا أبو تلك الطفلة، صدقيني ما كنت أحضرتك إلى هذا المكان الرهيب. ولكن على الضوء الغائم في هذا القبو، أجابت الصورة على أسئلتي بأسئلة أخرى فقط، وحضور «مارتن» إلى جانبي، ينظر إليَّ كيف كنت ألتهم تلك الصورة، راح يجبرني، على الرغم من رغباتي الخاصة، على ألا أكتشف في وجه الطفلة ملامح مني فقط، وإنما ملامح منه أيضًا، ملمح غير مؤكد من أي منا نحن الاثنين.

ستأخذ «فكتوريا»، مع مرور الزمن، بالتشابه أكثر فأكثر مع «مارتن» بالطبع. عندما تتمكن الطفلة، بعد بضع سنوات، من رؤية نفسها في المرآة، وتستجوبها كي تجد آثار أبيها، سترى ملامح «مارتن» فقط، لأن هذا ما ستبحث عنه: «مارتن» هذا الذي ستكونين قد قدمته إليها، الأب الأسطوري الذي سيتكلم عنه «ميشال برنار» و«كلاوديا»، كلما ذهبت «فكتوريا» بحثًا عن مزيد من القصص لدى عمها وعمتها. أم ربما، في لحظة ما، سترى «فكتوريا» وهي تنظر إليه، فيما وراء عينيها في المرآة، صدى عينَي العم «ماكس»، زوج عمتها الأول المنسي، والذي مات في ألمانيا إلى جانب أبيها بعد شهور من ميلادها، ينظر إليها من صورتي التي آمل أن تضعها «كلاوديا» على الكومودينو بجوار سريرها، وأنتِ كذلك. الصورة التي ربما ستعرف التحدث إلى «فكتوريا».

لأنكِ تؤمنين بأن الصور تتكلم.

هذا ما قلتِه لي في الليلة الوحيدة التي أنجزتِ فيها أخيرًا وعدكِ لي وأنا في الثانية عشرة، تلك الليلة غير الواقعية في فرنسا، حين سمحتِ لي بالدخول فيكِ مثلما دخلتِ أنت فيَّ خلال خمسة وعشرين عامًا. في تلك الليلة أخبرتِني بشيء لم تخبريني به قطُّ في الأحلام، ولم تخبري به كذلك «مارتن» قطُّ. كنت تحتفظين بصور أطفالك العشرة في محفظتك. وعلى الرغم من أن المكان كان مظلمًا إلى حد لا يمكننا معه رؤية الصور، فقد رحت تمررينها إليَّ كي تتعرف عليها أصابعي، وقلتِ لي، وأنت تقومين بحركة محبة في شعري، إننا عندما نصل إلى برلين ستأخذينني لأرى بقية الصور ولرؤية الأطفال

كذلك. وكانت تلك هي الإشارة الأولى إليَّ بأنكِ ربما ترغبين في مواصلة رؤيتي، إلى أنكِ تتخيلينني كجزء من مستقبلكِ. أنا كنتُ أعرف طبعًا أنكِ لن تعودي أبدًا لرؤية أولئك الأطفال، بل إنني كنت أشك أيضًا في أنني لن أراهم عندما أعود. والشيء الوحيد الذي استطعتُ فعله يا «سوزانا» هو أنني أرسلتُ إليكِ بعض الصور التي استطعتُ إنقاذها من البيت الذي كنتِ تعيشين فيه معهم، قبل أن ينهبه «الجستابو»، وقبل أن أُحبس أنا نفسي. في تلك الليلة لم أكلمكِ عن هذا، عما يقترب. فضَّلت أن أهمس لكِ أنني أفهم الآن لماذا كان جميع الأطفال الذين اخترتِهم في الثانية عشرة من العمر، وجميعهم من الذكور، ألمحت لكِ أنكِ كنت تكررين معهم إيماءة الحماية التي قمتِ بها معي في أحلامي عندما كنتُ في هذه السن. وفكرتُ، ولكن لم أقل لكِ ذلك، في كم يبدو غريبًا أنكِ، على الرغم من كل نصائحك، لم تتمكني من إنقاذنا، لا أنا ولا هم. لأنه لا يمكن لشيء أو لأحد أن ينقذ أولئك الأطفال الحالمين في عالم من القتلة.

ولكنكِ لم تكوني تعرفين هذا، في تلك الليلة الغائمة في فرنسا حين شرحتِ لي نظريتكِ عن الصور. عندما أخبرتِني هامسة أن أمكِ قالت لكِ، عندما كنتِ صغيرة، إن الصور تتكلم. ولسنوات كنت تنسبين إلى سوء حظك واقع أن الصور، الصور كلها، تصمت بحضوركِ. وكنتِ واثقة من أن الشيء الوحيد الذي تنتظره الصور لتكشف أسرارها هو مغادرتكِ الحجرة. في بعض الأحيان كنتِ ترجعين متكتمة، وأنتِ في منتصف الطريق، لتري إن كنت تقدرين على خداع الصور اللعينة، أو تلصقين أذنكِ بباب الحجرة المغلق

على أمل ضبطها وهي تتبادل الحديث فيما بينها. عندئذ أقسمتِ أن تصيري مصورة، وألا تكتمي أسرار الصور، مثلما فعلت بكِ أمكِ والكبار الآخرون. ولكن حين بدأتِ العمل مع أولئك الأطفال فقط، تمكنتِ أخيرًا من سماع لغة الصور، حين بدأ فريق أولئك الأطفال بالتقاط صور لأحلامهم وجعلوها تتكلم عنكِ.

الآن حيث لم يعد لأولئك الأطفال وجود، ولا لي أيضًا، هل ستقولين القول نفسه لابنتكِ؟ هل ستقولين لها إن الصور تتكلم؟ هل ستعلمينها بصبر الأسئلة التي يجب توجيهها إلى الصور، إلى الأحلام، كي تكشف لها عن حياتها الخفية؟

ما هو أساسي يا «سوزانا»: إذا ما صادفَت ابنتكِ ذات يوم صورة عتيقة ذاوية لوجه رجل مات منذ سنوات طويلة، وإذا بدأت صورتي ذات يوم بالإيحاء لابنتكِ بقصتي هذه التي لا يعرفها أحد سواكِ، ما الذي ستفعلينه؟ إذا ما تمكنتُ من الدخول في أحلام «فكتوريا» مثلما دخلتِ أنتِ في أحلامي، إذا ما تمكنتُ من الهمس لها ببعض العبارات، ما الذي ستفعلينه؟ هل ستغلقين باب الحجرة حيث توجد الصور التي التقطها أطفالك لبرلين، حيث تنظر إليك تلك الصور من الجدران، وستجعلين «فكتوريا» تحلف إنها لن تخبر عمتها «كلاوديا» أبدًا، وأنه عليها أن تُقسم بأنها لن تقول أبدًا كلمة واحدة لعمتها «كلاوديا» مما ستعترفين لها به؟ وهل ستقولين لها بعد ذلك إنكِ دخلتِ ذات يوم إلى حجرة في فندق بباريس ورن الهاتف، وستقولين لها مَن كان الرجل الذي يتصل بكِ، الرجل الذي كان يتصل بكِ قبل أن تولدي؟ أم ستقولين للطفلة إنها تتخيل أشياء؟ وإنه ليس صحيحًا أن الصور تتكلم؟ وإن الأحلام تكذب؟

من أجل هذا طلبتُ منكِ أن تأتي لرؤيتي هذه الليلة. كي أطلبَ منكِ معروفًا أخيرًا في حلمي الأخير هذا في الحياة.

إنني على وشك الاستيقاظ. أشعر بأن أحدهم، في الجانب الآخر من الواقع، يهز كتفي. ها أنتِ تذهبين، إنكِ تذهبين. ليس مهمًّا أنكِ لم تكلميني. يمكنكِ الذهاب يا «سوزانا»، يمكنكِ الذهاب من دون أن تعترفي لي إن كنتُ أنا والد الطفلة. لست بحاجة إلى معرفة ذلك. عندما أفتح عيني سألتقي بصديقي «مارتن». هو سيساعدني على الاستيقاظ والنهوض عن الأرضية القذرة. لن أقول له كلمة واحدة عن هذا الحلم، مثلما لم أخبره ولم أخبر أحدًا أي شيء عن الأحلام السابقة. سيكون فظيعًا أن يشعر بأنه تعرض للخيانة من جانب أولئك الذين يُقَدِّرهم ويحبهم. لا بد أن مِحنًا كثيرة قد تحمَّلها ذلك الإيمان الرائع بالإنسانية الذي أظهره «مارتن» خلال الأسبوع الطويل الذي أمضيناه معًا في باريس: من دون الذهاب بعيدًا، الشك بأن أحدهم قد خاننا، هو وأنا، أحدًا ممن نثق بهم، وسلمنا للعدو. ستكون جريمة أن أنتزع من «مارتن» الإيمان المتبقي لديه، انتزاع القليل المتبقي لديه منه، هذا الإيمان الذي ما زال يعلن صارخًا أن العالم لا يجب أن يكون بالضرورة على ما هو عليه. «مارتن» بحاجة إلى هذا الإيمان من أجل مواجهة ما على كلينا مواجهته بعد وقت قصير جدًّا.

أما أنا، فما أحتاج إليه هو إيماءة منكِ. ليس كلمات. مجرد حركة تكاد تكون غير ملموسة من عينيكِ، أو فمكِ، تقدم لي الأمل بأنه، في ذلك اليوم الذي ستصل فيه ابنتكِ إلى توجيه السؤال إليكِ عن ماضيها، أن تمتلكي السخاء بإخبارها، أو ربما التأكيد لها، بالقصة الحقيقية لتلك الليلة التي دشنت فيها أمها وأبوها العالم بالنسبة إليها.

إنني واثق من أنكِ تتفهمين أنه ليس لديَّ أحدٌ سواكِ في العالم أستطيع اللجوء إليه.

تكفيني إشارة خفيفة جدًّا ونائية قبل أن تغادري: شدي على يدي على سبيل الوداع، قولي لي بيدكِ، في يدي الآخذة بالمضي والاستيقاظ، قولي لي إنكِ لن تنكري على «فكتوريا» هذه القصة التي لم يعد بمقدوري روايتها وحدي، هذه القصة التي لا يمكن لها أن توجد من دون كلماتكِ.

أم إنكِ تريدين لقصتنا أن تموت معي؟

•



«روائي عالمي من الدرجة الأولى»
الواشنطن بوست

«عمل محكم البناء... يستدعي إعادة نظر جذرية في طبيعة الثقة»
ببلشرز ويكلي

في باريس أيام الحرب العالمية الثانية، تدخل امرأة غرفة في فندق، فتتلقى اتصالًا هاتفيًا من مجهول يبدو على علم بكل شيء عنها وعن الأسباب التي دفعتها إلى الهروب من بلادها. وعلى مدى الساعات التسع التي تدور فيها المكالمات والرواية، يخبرها الغريب عن نفسها وعن عشيقها المهدَّد والمتهم بالعمل مع المقاومة الفرنسية، وعن الوضع التاريخي والسياسي المتوتر، وعن تخيلاته عنها.
تتحدى هذه الرواية السياسية المثيرة كل مفاهيم الوفاء والخيانة المعترف بها، وتستدرج القارئ إلى عالم من الغموض لا شيء فيه يشبه ظاهره، بما في ذلك النص الأدبي نفسه.

آريل دورفمان مؤلف روائي ومسرحي، وأستاذ جامعي، وناشط حقوقي، أرجنتيني-تشيلي، ولِد عام ١٩٤٢. حازت مسرحيته «الموت والصبية» جائزة «لورانس أوليفييه»، وأخرجها للسينما رومان بولانسكي. يعيش دورفمان حاليًا في الولايات المتحدة ويُدرِّس آداب أمريكا اللاتينية في جامعة «ديوك» في ولاية كارولاينا الشمالية.



www.bqfp.com.qa

الصور: © Shutterstock.com



ISBN 978-9992195789



دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY QATAR FOUNDATION PUBLISHING



مؤسسة قطر
Qatar Foundation